حريم فى حياة الزعيم

سعد زغلول



أشرف توفيق

الثورة التى أيدها الحرملك

الناشر

مركز الراية للنشر والإعلام

حريم فى حياة الزعيم

سعد زغلول

الثورة التى أيدها الحرملك

أشــرف توفيــق

الناشر
مركز الراية للنشر والإعلام

مركز الراية للنشر والإعلام

مصر - القاهرة - ٢٠ ميدان الحسين

تليفون : ٥٩٢٦٢١٩ فاكس : ٤١٨٩٤٠١

حريم فى حياة الزعيم سعد زغلول

أشرف مصطفى توفيق محمد

رقم الإيداع : ٣٠٢٤-٢٠٠٠

الترقيم الدولى : ISBN: **977/5967/13/9**

الطبعة الأولى : سنة ٢٠٠٠

التوزيع : مكتبة فكرى - ٢٠ ميدان الحسين

مقـــدمـة .....

﴿ إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير ﴾ (سورة التحريم - آية ٤)

.. ولأسباب كثيرة قال سعد زغلول : مافيش فايدة !!

كان الزعيم سعد زغلول صاحب خطاب نهضة . وكان يمكن أن يتقدم الرواد المناصرين لقضية المرأة فى بلادنا . وكان يملك أدوات التقدم عليهم جميعًا : الثورة .. الشارع حزب الوفد . فصاحة اللسان والخطابة ، ولم يكونوا جميعًا بعيدين عنه أو بعيدًا عنهم فهو أزهرى سافر للغرب كرفاعة الطهطاوى . وتلميذ للشيخ محمد عبده . وصديق لقاسم أمين ومشارك ومعاصر لأحمد لطفى السيد .

وهو من القلائل الذين عاصروا الأميرة « نازلى فاضل » وجلسوا لصالونها وكان محل تقديرها وسرها فهو محاميها الخاص !! ولذا فإنه لم يستغرب ويفتح فاهه من اصطلاح « النسائية » عند ظهوره علنيًا « فى المحروسة عام ١٨٩٩ بكتاب تحرير المرأة » لقاسم أمين .

هذا الإصلاح الذى يعنى بمفهومة التحليلى الوعى الناشئ عن الظلم الواقع على المرأة بسبب جنسها وبمعناة التطبيقى صراع المرأة للتحرر من القهر الاجتماعى او السياسى الواقع عليها وانشطتها النضالية المختلفة لدفع هذا القهر .

ولكن الرجل كان مهمومًا بقضية الوطنية . يبحث عن وصفة سحرية لثورة شعبية تسرق الاستقلال لبلاده من تحت عرش الخديوى ومن وراء ظهر دبابات الإنجليز كان يحلم بتفجير الشارع مدنيًا وإن كان قد سبق له المشاركة فى ثورة عرابى التى فجرت الشارع عسكريًا . وبالطبع لم يغب عنه أهمية مشاركة المرأة فى هذه الوصفة السحرية الجديدة .

ولكنه اعتقد أن النساء فى ثورته كصفية زوجته ، سيسرن خلفه وسيعطين لقضيته الوطنية أسبقية على قضيتهن النسائية . سيدفعن الثمن ولن يطالبن بالمقابل سيرضين بالفتات ولن يخرجن عن دائرة القناعة . وكم كان واهمًا !!

وقد أعطى سعد زغلول للنساء حرية عريضة إذا ما كان الأمر مرتبط « بالوطنية » وترددت خطواته معهن إذا تعرض الأمر لثورة أخرى أردن أن يخوضنها تحت مظلة الوطنية مرتبطة بذواتهن ولم يكن الأمر مع النساء يقبل ما قبلته (زوجته صفية) تضع البرقع الأبيض على وجهها فى منزلها فإذا سافرت إلى أوروبا فى الصيف .. خلعت الحجاب ومشت سافرة !!

وعندما خرجت النساء فى مظاهرات ثورة ١٩ وسقطن شهيدات . لم يعد مقبولاً من سعد زغلول تأجيل النسائية وتفضيل الوطنية .. لم يفلح معهن الشعار القديم « لا صوت يعلو على صوت المعركة » الذى ردده الوفد فى مقولة « الاستقلال التام أو الموت الزؤم » لذا فقد ابتعدن بشكل ملحوظ عن وضع تحرير المرأة تحت مظلة التحرير الوطنى ، طالما أنه يؤجل الهدف الأول « النساء » إلى حين تحقيق الهدف الثانى « الاستقلال » م

وكما تقول المستشرقة « مارجويدران » : إن طرح سؤال هل يتعين على المرأة إعطاء النسائية أسبقية على الوطنية ؟! كان يحمل فى طياته صيغة إدانة تفرضها السلطة الأبوية .. وتفرض على المرأة اختيار بين أمرين ، ويفرض عليها عبئًا قوميًا ووطنيًا ، ويلح على تاريخها الطويل الذى تعودت من خلاله على تفضيل الآخرين على نفسها . ويدعوها إلى القيام بتضحيات وتأجيلات لا نهائية ، ويثير الإحساس بالذنب لدى اللائى يفضلن ذواتهن .

وفى ١٦ مارس ١٩١٩ وقبل خروج النساء فى مظاهرات وطنية احتجاجًا على نفى سعد زغلول والتصاقًا بثورته الوطنية دارت مكلمة حول الوطنية والنسائية كان طرفها النساء فى جهة بقيادة صفية زغلول وهدى الشعراوى ، وأقطاب الوفد الذكور فى طرف آخر ووصل الأمر بالذكور لحد رفض الدور الوطنى للمرأة !! وإذا بصوت عبد العزيز فهمى يعلو : إنى أعجب أن تقترح سيدة عاقلة مثل صفية هانم مظاهرة النساء فى الشوارع ؟! ويذهب لبيت الأمة ويحاول أن يمنع ذلك ويعود خائبًا فيقول فى اجتماع موسع بالحزب : أنه يخشى أن تكون النساء قد أصابهن نفى سعد بهزة أثرت على عقولهن !!

وظهرت عبارة لصفية زغلول قوية ومؤثرة : إن نساء مصر لسن أعضاء فى الوفد . ولا توجد امرأة تمثلهن فى الوفد . ولهذا ليس من حق الوفد أن يصد الأوامر إليهن . إننا نخرج التزامًا بقضايا بلادنا ولا نخرج لنؤيد سياسة حزب !!

وهرول (عبد الرحمن فهمى) متطوعًا أن يقنع صفية هانم زغلول نظرًا للعلاقة الوثيقة بينه وبينها وقال لصفية زغلول عبارة غريبة : إن سعد زغلول قد جعل (بيت الأمة) لكل المصريين ولكنه بنى فى بيته الذى تعيشين فيه « سلاملك » يستقبل فيه الرجال من باب خاص بهم ، بينما تدخل السيدات من باب آخر إلى صالونات خاصة بهن ولم يقل عبارة الحرملك - فاتركى الحال على ما هو عليه الأن حتى يحضر سعد زغلول ويعيد تغيير الأبواب !!

ولم ينم عبد الرحمن فهمى الليل !! إنه لم يستطع أن يفهم لماذا تريد أن تخرج المرأة بنفسها فى السياسة ؟! وكان أكثر ما يزعجه موقف زوجة زعيمه سعد زغلول . إنها تريد أن يخرج النساء للشوارع فى الوقت الذى وقفت تحدثه من خلف الباب !! إنه لم يرها بل سمع صوتها فقط فقط ، وراء الحاجز !! ولولا أنه يعرفها ويعرف صوتها لاعتقد أنها غواية من الأخريات فإن كيدهن عظيم . ولكنه صوتها إنها صفية زغلول !!

ولذا سارعت هدى شعراوى بتقديم استقالتها من (لجنة نساء الوفد) واعتزرت عن الاستمرار عندما وجدت « سعد زغلول » غير مهتم بأن يكون النساء

عضوات عاملات فى الحزب . مكتفيًا بأن يعملن منتسبات من خلف أزواجهن أعضاء الوفد كتوابع .

رغم أن النساء عندما وقع الصراع بين عدلى وسعد . انضممن إلي سعد زغلول ، حتى أن على شعراوى باشا انضم إلى عدلى . وإذا به يفاجأ بزوجته هدى شعراوى تؤيد سعد وتهاجم خصومه ومنهم زوجها ! واعتقدت « هدى شعراوى » بأنه فى لحظات الخطر لا يبدى الرجل أى اعتراض لظهور المرأة بجواره ولكنه لا يغير نظرته إليها وكونت اتحادها النسائى منفصلة بقضية النسائية ، جاعلة الوطنية من خلال رؤيتها الخاصة كأنثى بدليل اهتمامها الواضح بأثار معاهدة ١٩٣٦ وقضية فلسطين .

وإن كان سعد زغلول قد أوضح بشكل مباشر للزعيمة الوفدية الجديدة التى تولت لجنة نساء الوفد بعد هدى شعراوى - منيرة ثابت - إنه لا ينكر حركة المرأة وحقوقها ولكنه يؤجلها - وإن التأجيل لا يعنى الإنكار وإنما يعنى الانشغال بما هو أولى - إنه شىء يشبه ما فعله عمر بن الخطاب فى عام الرمادة - أوقف أعمال نص قطع يد السارق ولكنه لم يكفر بالنص . وطالبها بأن تضع التحولات الوطنية والأعراف والميراث الاجتماعى فى الاعتبار . ولكنها أتعبته أكثر من هدى شعراوى فهى صغيرة وحاصلة على ليسانس الحقوق من السربون وثائرة لحد التطرف لقد فاجأته سنة ١٩٢٤ عندما ألف أول وزاة شعبية بقولها انها وزارة لا تمثل الشعب !؟

وسألها الزعيم لماذا !؟ إنها أول وزارة يدخلها الأفندية . وقالت له : وزارة بلا وزيره امرأة لا تمثل الشعب !! وضحك سعد وقال لها : جميع الوزراء متزوجون وكل وزير ينوب عن زوجته . وإذا بمنيرة ثابت تعارضه : أنا لم أتزوج بعد يا سعد بيه ولا ينوب عنى إلا امرأة !! وأنبرت للزعيم بلسانها الطويل « التقاليد منعت الأفنديات أن يصبحوا وزراء وأنت كسرت التقاليد الذكورية فلماذا لا تكسر التقاليد الأنثوية وتدخل المرأة البرلمان . إنك رئيس وزراء ثورة » .

واعتقد سعد زغلول أنه غير العادات الشائعة . فإنه كان لا يجوز للمرأة أن تمشى وحدها فى الشارع . يجب أن يتبعها خادم . فإذا كانت مع زوجها ، تعمد أن

يمشى أمامها ، وتمشى هى خلفه . فإذا به يمشى مع زوجته ويخرج معها ويركبا الحنطور جنبًا إلى جنب . ومما يذكر أن صورة الزفاف لسعد زغلول وصفية ظهر فيها العريس سعد جالسًا على مقعد وكانت صفية واقفة وراءه ! ولكن بعد الثورة بدأت صفية تظهر فى الصور الفوتوغرافية جالسة إلى جواره أو واقفة بجانبه .

وحدث أن رفع سعد الحجاب عن وجه أبنة الشيخ على يوسف فى إحدى حفلات بيت الأمة وكرر ذلك مع الآنسة فكرية حسنى عندما القت خطابًا وعلى وجهها حجاب فقال لها : إننا لا نسمع ما تقولين ؟!

ولكنه لم يحتمل ما فعلته (منيرة ثابت) كيف يخرج رجل غريب مع آنسة غريبة فى الشارع جنبًا إلى جنب ؟! بل إنهما يتنزهان ويجلسان فى الأماكن العامة ؟! وفرض على منيرة والأستاذ عبد القادر حمزة الزواج ؟! مع أنهما كانا يعملان معًا فى جريدة واحدة ؟!

وبهت سعد زغلول من منيرة ثابت وهى تقول له : أنها موافقة على الزواج ولكن الأستاذ عبد القادر حمزة متزوج وعنده أولاد وهى لا تريد أن تكون لها ضرة : إنها ضد تعدد الزوجات . ..

.. والمعنى انه عليه أن يطلق زوجته الأولى وقال لها سعد : لا تملكى تعديل نصوص القرآن يا منيرة وقالت له انا اتحدث بالشريعة : « ولن تعدلوا » ..وإذا بسعد يثور ويصيح إنك تفسرين القرآن بالفرنساوى الذى تجيديه !!

فلقد اعتقدت منيرة ثابت أن الأربع كلمات السحرية التى كررها (سعد زغلول) الدين لله والوطن للجميع قد حيدت الدين عن نظر طموحات النسائية ، وأن قبول الزعيم للسفور يعنى قبوله للتبرج ، وأنه إذا كان قد سمح لزوجته بقلع اليشمك فإنه سيسمح للنساء ولها لخلع نصوص الدين !!

وأسقط سعد زغلول « منيرة ثابت » من برجها العاجى ومن ثورتها الفائرة وزوجها برجل متزوج وقبلت أن تكون زوجته الثانية !! لقد أقنعها سعد زغلول بأنه

لم يخلع الجبة والقفطان ولكنه لبس فوقها الملابس الأفرنكى . وان تحييد الدين الذى يفهمه سعد الأزهرى ، الأفندى ، الفلاح ، الثائر ، الزوج بلاولد ، الأب لكل الشعب ، السرى ، العلنى ، المنفى ، الحاضر . هو التمهيد لدولة مصرية خالصة لا يقتلع فيها الدين من القلوب ولكن يقتلع فيها « الباب العالى » من الحكم . دولة مدنية لا يتاجر فى سياستها باسم الدين وتهب حق المواطنه والتمثيل لمن يثبت صلاحه قبطى كان أم مسلم .

إن عبارة الدين لله . لا تعنى انه لله وحده والناس لا علاقة لها به . وإنما تعنى ان التقديس لله وحده والناس جميعًا عبادة .

ويبدو أن صفية زغلول كانت تقر سعد فيما ارتضاه فقضية المرأة متصلة بقضية وطنها ولا تنفصل عنه فإذا قامت بدورها فى (الوطنية) فعليها أن تعود وتجلس فى بيتها ، فقد رفضت من يقول أنها زعيمة الوفد بعد موت سعد . إنها تكمل رسالته ولا تعرف من أين تبدأ من بعد ما انتهى !!

ويعتقد البعض كما سجلوا فى كتاباتهم أن سفور صفية زغلول فى إطار النسائية ولكنها كانت تراه فى إطار الوطنية وثورة ١٩ !!

فلقد أدهش صفية زغلول أن « لجنة نساء الوفد » عند المقاطعة المدنية لكل ما هو إنجليزى من بضائع وتعاملات الذى قادته الثورة الزغلولية ، يضع معظمهن (البودره) على وجوههن !! وكانت إذا أرادت أن تصف فتاة بأنها مؤدبة قالت : إنها لا تشرب القوة ولا تضع ساقًا على ساق ! وأذهلها عندما رافقتها « فهيمة ثابت » فى سفرها لسعد زغلول فى منفاه عند مرضه بجبل طارق أن هذه المرأة الثورية التى تركت أسرتها وأولادها لتكون فى خدمتها وزوجها سعد لتقدمهما فى السن - تدخن السجائر !! وبدى وكأنها تعيد أفكارها عن المرأة الفاضلة والمرأة الثائرة ؟!. وحينما زارتها السيدة فاطمة نعمت راشد سنة ١٩٤١ أول مرة مرتدية بنطلون طالبه منها أن تكون رئيسة شرفيه لأول حزب نساء فى مصر أسسته نعمت راشد فى ١٤٩٢ دار بينهما هذا الحديث :

صفية - لماذا لا تلبسين مثل النساء ؟!

نعمت - تقصدين البنطلون .. إنه أكثر حشمة وحرية للمرأة العاملة .

صفية - ولكنه أكثر فتنة بالناس فى الشارع ، المرأة لا ترتدى البنطلون إلا إذا خلع الرجل بنطلونه وأعطاه لها !! وانصرفت فاطمة نعمت قبل أن تكمل قهوتها .. لقد سمعت منها أنها لم ترفض زوجه النحاس لأنها مطلقة وإنما لأنها تلبس البنطلون وأنها لم ينطلق لسانها ضد امرأة بأنها سيئة السمعة . ولكن البنطلون يسىء لسمعة المرأة (إنه يصفها يشفها) ويبدو أن بنطلون فاطمة هانم كان من أنواع الأسترتش !! وفى حزبها الخاص قالت فاطمة نعمت : لقد كبرت وخرفت صفية زغلول ، زهبت لأكلمها عن أول حزب للنساء فى مصر فكلمتنى عن البنطلون الذى جعل النحاس يترك أخت القاضى مصطفى حسن ويتزوج بزينب الوكيل . أنها وقفت عند مسائل شكلية !!

وأسقطت المسائل الشكلية حزب فاطمة نعمت حينما رأت أن من حق المرأة أن تكون ضابطة فى القوات المسلحة !! لأن من حقها دخول كل الوظائف وسألوها إذن يمكن تكون مجندة وعسكرى ومقاتلة ولم ترد !؟ ووزعت الجاتوه لتوقف الكلمات عن الألسنه !!

فهناك مرحلتان للوعى الوطنى النسائى :

- المرحلة الأولى (من نهاية القرن التاسع عشر وحتى ثورة ١٩١٩)

- المرحلة الثانية (من ١٩١٩ حتى ١٩٢٣) .

واستندت المرأة فى المرحلتين وتعكزت فيهما على الحداثة الإسلامية ، والحركة الوطنية التى بطابعها كانت مسلمة ولأن النسائية فى المرحلة الأولى كان لها مفهوم شرقى .

« ففى هذه الفترة المبكرة ركزت المرأة على إعداد نفسها والجيل المقبل من النساء على حياة جديدة فى المجتمع ، وذلك عن طريق التعليم الذاتى ، والتعليم الرسمى فقد بدأت المرأة بالتحرك تدريجيًا وبحذر شديد نحو الحياة العامة ، بينما

ظلت محتفظة بتقاليد العزلة ، لتتجنب فقدان الاحترام والاستغلال الجنسى . ولقد حذرت كل من . ملك حفنى ناصف . ونبوية موسى من رفع الحجاب فى بداية القرن حتى لا تتعرض المرأة لمضايقات الرجال الذين لم يتعودوا رؤية المرأة المحترمة فى المدينة بدون حجاب . وفى عام ١٩١٠ ردت ملك حفنى ناصف على حديث لعبد الحميد أفندى ، دعا فيه إلى رفع الحجاب وقالت : إننى مندهشة لدعوتك لنا برفع الحجاب فى الوقت الذى مازلنا نتعرض فيه للحملقة الوقحة وللاحظات غاية فى الإحراج عندما نسير فى الطريق !! كانت النسائية التى تطالب بها المرأة فى هذه الفترة تختلف عن النسائية التى ينادى بها الرجل المتحرر ، والتى يدعو فيها إلى وضع نهاية فورية لنظام الحريم ورفع الحجاب ، ولقد أصرت المرأة على تحديد جدول أعمال خاص بها ، وتحديد أولوياتها ، وعمليًا كان على المرأة وليس على الرجل أن تواجه المجتمع الأبوى ، ولقد رأت أن الوقت لم يكن مواتيًا بعد . وفضلاً عن ذلك فإن السخرية الكامنة فى تلقى المرأة للأوامر من الرجل بالنسبة لتحررها ، لم يكن خافيًا عليها .. » .

لذا رأت ثورة ١٩ أهمية الاستفادة من الوعى الوطنى النسائى وأشراكه فى قضية تحرير بلاده وفى هذه المرحلة الثانية اشتركت نساء الوفد مع رجال الوفد كما أنهن حللن محلهم أثناء غيابهم ..

إن نجاح الوفد يرجع بدرجة كبيرة إلى التأييد الكبير الذى كان يحظى به ، فلقد لعبت نساء الوفد دورًا أساسيًا فى تنظيم وتنسيق ، وتوسيع نطاق التأييد للوفد ، وفى الأيام الأولى للثورة ، عندما تم استبعاد الزعماء من الرجال على وجه السرعة من مسرح الأحداث ، حافظت النساء المصريات على الحركة متأججة وحشدن التأييد الوطنى من خلال تعبئة شبكات الاتصال بين السيدات فى كل أنحاء البلاد . فمنذ عام ١٩١٩ وحتى عام ١٩٢٢ مرت فترات طويلة كان فيها سعد زغلول « زعيم الوفد » وآخرون من زعماء الوفد يعيشون فى المنفى أو فى المعتقل وحل نساء الوفد محل الرجال فى هذه الفترة ولعبن أدوارًا رئيسية مثل الحفاظ على الروح المعنوية للشعب ، وتخطيط الاحتجاج ، وإدارة الشئون المالية ومواصلة الاتصال بالزعماء الغائبين وسلطات الاحتلال ، ووسائل الإعلام والخارج ..

وشاركت المرأة كمناضلة فى الكفاح أثناء الثورة ، بصفتها مواطنة مصرية وليس بصفتها امرأة .. وكما أن الوطنيين من الرجال قبلوا النضال الوطنى للمرأة ، عندما كان يروق لهم ذلك ، مثل مظاهرات المرأة والمقاطعة الاقتصادية على سبيل المثال .. وتحت ظروف القهر وعندما كانوا يودعون السجن أو يرسلون إلى المنفى ، كان الرجال يرحبون بالأدوار الكثيرة التى تقوم بها المرأة فى مركز الأحداث ، كالمحافظة على الروح الوطنية ، وتوسيع قاعدة التأييد الوطنى ، والاهتمام بشئون المواصلات والمالية . ولكن عندما كانت العناصر الوطنية من الرجال لا تزال على مسرح الأحداث ، ولها السيطرة على مقاليد الأمور ، أهملوا وجهة نظر المرأة ، ثم بعد الاستقلال حرموها كمواطنة من حقوقها السياسية المكتسبة حديثًا .. وكان قد أصبح جليًا لرائدات الحركة النسائية خلال النضال الوطنى بعد ذلك ، أن وطنية الرجل تتسم بطابع السلطة الأبوية .

- وكانت تجربة المرأة مع سعد زغلول ، تجربة مفيدة فقد وضح فيها أن الوفد يريد أن يذيب الحركة النسائية فى الحركة الوطنية . والحركة النسائية تريد أن تركب الوفد لتحقيق طموحاتها .

ولم يكن السؤال كيف يمكن وضع الوطنية والنسائية فى زجاجة واحدة ؟! وإنما كان السؤال من يسبق الآخر فى الأولويات والتحرك الوطنية أم النسائية ؟! ودون الحكم على التجربة فإن الدرس المستفاد أنه عندما تتعايش الوطنية مع النسائية .

فمن المفيد التحرى عن البعد الوطنى للنسائية والبعد النسائى للوطنية مع أخذ العديد من الأسئلة فى تجربة سعد ونساء الوفد بعين الاعتبار .

كما أن أبعاد الوطنية عن النسائية والنسائية عن الوطنية تجزئة لا طائل منها وسيخسر منها الطرفان . ولكن علينا أن نقرر أن حزب الوفد قبل أن يتعامل مع النسائية بالمفهوم الشرقى برغم أن النسائية بطبيعتها مفهوم غربى يتعين مقاومتها باعتباره صورة من الاستعمار الثقافى وأنه منذ عام ١٩٢٢ أخذت النسائية مظاهر غربية واضحة .

وقـد اعـترفت المرأة حـديثًا بذلك فـفى بحث لمركـز دراسـات المرأة الجـديدة ١٩٩٥ عن « الحركة النسائية فى مصر » أقر بأن من سمات هذه الحركة أثناء وبعد ثورة ١٩ وحتى ١٩٥٢ .

١ - الاتصـال بالغـرب الذى كـان له أثره في المقــارنة بين أوضـــاع المرأة المصــرية والغــربية .

٢ - تبنى التفسير المتقدم للدين فى مسألة النساء فى أغلب الأحوال .

٣ فك اللثام عن العادات التركية فى مـلابس النسـاء التى وصلت لحد الاعتقـاد فى أصولها الدينية .

٤ - أن العمل النسائى كالعمل الحـزبى فى مصـر فى تلك الفتـرة أعتمـد على النخبة والصفوة المثقفة وأنه باستثناء لحظات الاحتدام الثورى أثناء ١٩١٩ حيث اندفعت كتل النسـاء للمشـاركة فى التظاهرات والإضـرابات ، ظلت المسـاحـة الأسـاسيـة للعمل هى الرائدات المثقفات وربما من طبقـات بعينها . وكان مـركزهـا الأسـاسى المدن الكبرى والعـاصمـة القـاهرة . ولم تصل للريف المصرى ولم تتماس مع نسـاء الطبقات الفقيرة إلا من خلال بعض الخدمات .

إذن فقصة سعد مع النساء ليست قصة غرامية مشتعلة - ولا فضيحة صحفية صفراء .. ولكنه جزء من تراث شعب . وقصة مستمرة كانت ولا تزال مثارة ؟!!

وإن كان فيها كل ما يميز قصص النساء من تجارب وتنافر وعشق وهجران .

فسعد زغلول زعيم مع مطالب الحريم !

ولكنه زعيم أيضًا ضد تطرف الحريم ؟!

هو مع حقوق المرأة العامة .. التى تهم كل النسـاء ، ومسـتعد فى ذلك أن يضع رأسه على كفه . ولكنه لا يتجاوز ذلك ، ولا يتجاوب فيه !!

وقـد فعل وفقد وظيفة (وزير الحقـانية) من أجل حقوق الأميـرة « صالحة هانم » ، فإحدى أميرات القصـر الملكى وهى صالحة كريمة الأمير إبراهيم حلمى

عم الخديوى عباس حلمى الثانى . تزوجت من دبلوماسى روسى مسيحى هو (فلا ديمير يوركومنيش) وثارت ضجة حول هذا الزواج لأن الزوجة مسلمة ، والزوج مسيحى . فأمر الخديوى بمحو اسمها من سجل أفراد أسرة محمد على وتعيين قيم على أملاكها ليقوم بتقديم كشف حساب عنها كل عام لوزير الحقانية والذى كان وقتها (سعد زغلول) - وشعر سعد بأن هناك مؤامرة على ثروة تلك المرأة ، وذلك لقيام القصر بالتدخل فى أقصاء أمها من الوصاية لصالح أبنائها من زوجها الأمير . واعترض سعد على اختيار السرايا الأول « محمد باشا حسن » وقال أنه لص تاريخه لا يؤهله للوصاية - فاختار الخديوى حسن محرم وكيل وزارة الحربية الذى كان فى نفس الوقت يد اللورد كيتشنر الإنجليزى وعينه على القصر !!

فلما راجع سعد زغلول هذا الحساب وجد فيه إجحافًا خطيرًا فأمر بعزل حسين محرم وكان صديقًا حميمًا لكتشنر .. وللسراى أيضًا .. فلما شكاه تحدث إليه كتشنر بأنه لم يعمل حسابًا لصداقة حسين محرم باللورد اقصائه من وظيفة تدر عليه دخلاً .. وهو ما اعتبره سعد تدخلاً فى صميم عمله .. فاستقال .

ولكنه ضد نزوات النساء الخاصة ، إنه لا يعتبرها تحرر وتقدمية ، بل تخلف وعبودية . وذات يوم سمع (مصطفى وعلى أمين) سعد يتحدث غاضبًا عن سيدة اسمها « صفية » وبهت الطفلان .. إن سعد يهاجم صفية هذه بعنف ومرارة ، إنهما يعرفان أن ستهما اسمها صفية وهى زوجة سعد ، وهو يحبها كل الحب ، ويحترمها أشد الاحترام .. وإذا بالطفلين يبكيان فى وقت واحد حزنًا لأن جدهما يشتم ستهما بهذه الألفاظ القاسية !

وتنبه سعد إلى بكائهما ودهش ، وسألهما عما يبكيهما ؟ فقالا فى صوت واحد : لأنك تشتم ستى !

وضحك سعد طويلاً وضحكت صفية زغلول .. وقال سعد انه لا يهاجم صفية زوجته وإنما يهاجم صفية السادات أرملة صديقه الشيخ على يوسف !

وكـانت هـذه هـى أول مـرة يسـمـع فـيـهـا الطفـلان سـعـد يقسـو فى الحديث عن امـرأة !

وكان سر قسوته انه سمع أن أرملة صديقه أحبت بعد وفاته ممثلاً مغنياً اسمه زكى عكاشة ، وانها قد تتزوجه ، وكان سعد ثائراً على هذا التصرف ، فقد رأى فيه عدواناً على ذكرى صديقه الذى أعطى هذه المرأة اسمه ومجده وحياته فداست على كل هذا بالأقدام من أجل ممثل شاب !

وهاجمت سعد زغلول (نبوية موسى) و (منيرة ثابت) و (روز اليوسف) وقلن : إنها لم تخن زوجها ولكنها تتزوج بعد موته بـ ٧ سنوات . ثم أنه عندما مات زوجها على يوسف كانت صفية السادات فى السادسة والعشرين!! وقالت روز اليوسف: آلان زكى عكاشة مشخصاتى ؟! وقالت نبوية موسى : أخشى أن يفضل زعيم الوفد الطريقة الهندية فى التعامل مع الأرملة بعد موت زوجها .. فنحرقها حية مع جثة زوجها الميت !!

وقالت منيرة : إن سعد زغلول يريد وفاء المرأة بعد الموت - ولا يعترف بوفاء الرجل فى الحياة أين وفاء الرجل إذا كان له زوجة ثانية وثالثة ورابعة !!

ولكن سعد زغلول كرجل فلاح لم يتصور أن تنتهى قصة حب شهدها ، هذه النهاية كان يعتبر أن (زكى عكاشة) نـزوة . على صفية السادات أن تعلو فوقها وتتخطاها !!

وكانت القصة التى أثارت سعد زغلول كل هذه الثورة ، من الغرابة بمكان ، فقد كان الشيخ على يوسف فلاحاً فقيراً فى قرية بلصفورة فى الصعيد ، وجاء إلى القاهرة ودرس فى الأزهر ، ولكنه لم يستطع إتمام دراسته لشدة فقره . فعمل فى الصحافة . وبرز فيها . وأصدر جريدة المؤيد ، وأصبح الصحفى الأول فى مصر . وكانت المؤيد تهاجم الإنجليز وتنشر مقالات مصطفى كامل . وكان سعد يساعد المؤيد مالياً عندما تقع فى صراعها مع الإنجليز . وأحب الشيخ على يوسف الآنسة صفية السادات ابنة الشيخ السادات وهو عميد أسرة عريقة تنتسب إلى سلالة

الحسين أحفاد النبى . وتقدم الصحفى الأول إلى الحسيب النسيب يطلب يد ابنته . ووافق الأب فى أول الأمر. ثم تدخل خصوم الصحفى الأول واقنعوا الأب بأنه لا يليق بكرامة أسرة السادات العظيمة ان تزوج ابنتها لصحفى وضيع الشان من اسرة حقيرة لا تنتسب للنبى ولا للخلفاء الراشدين . واقتنع الأب وصرف النظر عن الزواج . وإذا بالأنسة صفية تتصل سراً بالصحفى الأول وتبادله الخطابات الغرامية وتتفق معه على أن تهرب من بيت أبيها وتتزوج منه. وفعلاً تم الزواج وفوجئ به الأب. ولم يكن سعد فى أول الأم موافقًا على هروب صفية من بيت أبيها ليتزوجها حبيبها الصحفى الأول . ولكنه لم يلبث أن وقف مع الصحفى على يوسف عندما رأى الرجعية كلها تقف ضده . فقد اوعز الإنجليز إلى الأب أن يرفع قضية أمام المحكمة الشرعية يطلب طلاق ابنته من الصحفى الأول بحجة عدم كفاءة على يوسف لابنته لأن نسبه حقير . وحرفته . وهى الصحافة . مهنة حقيرة بل أحقر الحرف ، حرفة كلها عار وشنار لا يحترفها إلا كل متشرد أفاق وكل من لا صناعة له وكل من لفظته الأعمال الشريفة !

وفوجئ سعد بأغلبية الراى تقف ضد الشيخ على يوسف وتقول انه لا يجوز . للصحفى الذى هو فلاح من أسرة غير منسبة ، أن يتزوج من ابنة كبير الأشراف !

ووجد سعد نفسه فى معسكر على يوسف ضد أغلبية الرأى العام فى مصر . إنه هو ايضاً فلاح مثل على يوسف . إن أسرته لا تنتسب للنبى مثل على يوسف . إنه كان صحفياً مثل على يوسف ، ومع ذلك فقد تزوج من ابنة رئيس وزراء مصر ، ولم يجرؤ احد على أن يقول ان هذا الزواج غير متكافئ !

لم يصدق سعد زغلول أن صديقه « الشيخ على يوسف » الذى صبر بعد حكم التفريق بينه وبين زوجته لمدة ثلاث سنوات .. عاد بها يحمل البشويه - ووجد أن هذا الحادث قد أعاق زواج صفية السادات - فتزوجها مرة أخرى ومن يد أبيها الشيخ السادات تنتهى قصته بأن تزوج أرملته من ممثل شاهدته وهو يؤدى دور روميو فى مسرحية لشكسبير !!

فإذا كان الطهطاوى تنبأ بفتح الباب للنساء ووقف ينظر من النافذة . وإذا كان الشيخ محمد عبده لم يجد غضاضه دينية فى فتح الباب ولكنه أغلق على زوجته . وإذا كان قاسم أمين سهل أمر فتح الباب وجعله مجرد ستارة يسهل اختراقها فإن سعد زغلول هو الذى قرر فتحه ولكنه قرر أيضاً أن يبقى مفتاحه بيده . وتطورت نظريات الباب ..

فاقترح فؤاد المهندس فى مسرحية شهيرة له .. أن نسك على البنات ونعطيهن المفتاح !! وانتهى الأمر بأن نسك الباب ويبقى النساء فى الشارع ومعهن المفاتيح ؟!

ولا يزال النساء يحلمن بباب مفتوح . وضياع المفاتيح !!

* * *

الفصل الأول

سفر التكوين

صورة لأميرة جميلة فوق سرير سعد زغلول !!

نازلي فاضل

١٨٥٥ - ١٩١٤

يقول رجاء النقاش :

وأعودإلى زيارتى لبيت الأمة ، أو بيت سعد زغلول ، فقد لفتت نظرى صورة معلقة فى حجرة نوم سعد ، وظننت فى أول الأمر ان هذه الصورة هى صورة زوجته « صفية زغلول » ولكن صديقى المؤرخ الفنان صلاح عيسى الذى كان يصاحبنى فى هذه الزيارة قال لى : لا هذه صورة الأميرة المشاغبة « نازلى فاضل » وتأملت الصورة جيداً وتعجبت ان تكون هناك صورة لأميرة فى بيت زعيم الفقراء والثائر على الأمراء او « زعيم الرعاع » كما كان اعداء سعد يطلقون عليه تهويناً لشأنه وتصغيراً لمكانته ، فالرعاع هم عامة الشعب ، وهم الغوغاء فى نظر الأرستقراطية التى كانت تضيق بشعبية سعد زغلول وحب الناس له .

وطرح السؤال نفسه من هى الأميرة نازلى التى وضع سعد زغلول صورتها الكبيرة فى حجرة نومه . وأشتد إلحاح السؤال عندما قرأت هذا الحوار فى كتاب «الهانم و الزعيم» للكاتب الصحفى الداهية - رشاد كامل .

وجاء السفرجى يحمل الطعام ، وتقدم به أولاً إلى « سعد زغلول » هكذا كانت التقاليد فى ذلك الوقت ، لكن السفرجى فوجىء ب سعد وهو يشير إليه بتقديم الطعام إلى « صفية » ..

فوجئت « صفية » وكتمت دهشتها لكنها لاحظت أن ضيق سعد يتزايد ، وكآبته تملأ وجهه وهموم الدنيا كلها تطل من عينيه ، وبكل رقة وحنان سألته :

- مالك يا سعد !؟ هل أنت مريض !؟

رد سعد : ياريت .. بل هناك مصيبة أكبر من المرض !؟

دهشت « صفية » من الإجابة وعادت تسأل بقلق أكبر ..

- خير يا سعد .. مصيبة إيه ؟!

رد سعد وهو متجهم الوجه :

- السلطان فؤاد سيتزوج « نازلى » !!

ولم تستطع « صفية » أن تخفى دهشتها وانفعالاتها ، وربما فرحت وارتاحت وهدأ بالها ، فلأول وهلة ظنت أن السلطان فؤاد سيتزوج « الأميرة نازلى فاضل » غريمتها السابقة فى حب سعد زغلول ، لكنها سرعان ما أدركت أن الأميرة « نازلى فاضل » كانت قد توفيت منذ بضع سنوات !!

وعادت صفية لتسأل « سعد » بدهشة :

- « نازلى » مين التى سيتزوجها « السلطان فؤاد » يا سعد ؟

سكت « سعد » قليلاً وطال صمته ، وخرجت زفرة حارة من صدره وقال :

- نازلى خطيبة « سعيد زغلول » ابننا ؟!

لم تملك « صفية » نفسها من الذهول وصدمة المفاجأة وصرخت قائل :

- مش معقول !! مش معقول !!

لكن « سعد زغلول » عاد يؤكد لها قائلاً :

- هذا ما حدث يا صفية !!

ورغم تأكيد «سعد» لم تكن « صفية » تريد أن تصدق ما تسمعه وقالت لـ سعد متسائلة وبدهشة .

- هل أنت متأكد يا سعد مما تقله الآن !

رد سعد وقد بدأ صبره الطويل ينفذ :

- نعم يا صفية « السلطان فؤاد » سيتزوج نازلى بنت « عبد الرحيم باشا صبرى » والتى يريد سعيد ابننا خطبتها !

وسكتت « صفية » من هول الصدمة !!

وإذا كانت صفية زغلول سكتت من هول الصدمة !! فقد تحركت من هول صدمة غير مباشرة أصابتنى فرجاء النقاش يقول : صورتها فى غرفة نوم الزعيم !

ورشاد كامل يكتب : إنها غريمتها السابقة فى حب سعد زغلول !!

أما صلاح عيسى فيصفها : بالأميرة المشاغبة .

وإذا بقطع الميكانو تتجمع حينما ذكر كتاب (الأميرة التى هزت عرش الخليج ؟!) عبارة : وفتنت الأميرة نازلى فاضل الإمام محمد عبده عن قضيته فصار بينهما علاقة وثيقة وصلت لحد تبادل الرسائل الخاصة !!

بدأت البحث عن حبيبة الزعيم الأميرة المشاغبة التى وضع صورتها فى حجرة نومه!! ولأن سعد زغلول كان أكثر من صديق لعباس العقاد الذى قال فى رثاء سعد :

شيعوا الشمس ومالوا بضحاها   وانثنى الشرق عليها فبكاها

والشمس هنا هى « سعد زغلول » فى رأى العقاد .

واعتقدت أن لوضع الصورة هذه نفس معنى لوحة « الشهد والذباب »[1] التى وضعها العقاد فى حجرة نومه . لما قرأت عن ما قاله المتقولون عن الإمام محمد عبده والأميرة نازلى فاضل ....

ولكنى كنت واهم ؟!!

---

(١) طلب العقاد (صلاح طاهر الفنان التشكيلى المعروف) . وطلب منه أن يرسم لوحة غريبة تحمل معانى الشعر الذى كتبه فى حبيبته بعد أن هجرها وهجرته :

فاتفقا على رسم فطيرة حلوة شهية يشتهيها الجائع والشبعان .. ولكن حام حولها الذباب . فأصبحت هذه الفطيرة على هذه الصورة .. لا يقترب منها أحد .. بل تعف النفس منها وتعزف العين عنها !! ووضع العقاد هذه الصورة فى حجرة نومه .. فقد عزف عن حبيبته كما تعزف العين عن هذه الفطيرة !!

والبعض يرون أنها ترجمة لأشعار للعقاد تقول :

تريدين أن أرضى بك اليوم للهوى .. وأرتاد فيك اللهو بعد التعبد .. فألقاك جسمًا مستباحًا وطالما لقيتك جم الخوف جم التردد .. إذا لم يكن بد من الكأس والطلا .. ففى غير بيت كان بالأمس مسجدى

وكان يرى أن الحب له فلسفة .. وخلاصة التجارب كلها فى الحب أنك لا تحب حين تختار ولا تختار حين تحب ، وإنما مع القضاء والقدر حين نولد وحين نحب وحين نموت ، لأن الحياة وتجديد الحياة ، وفقد الحياة هى أطوار العمر التى تملك الإنسان ولا يملكها الإنسان .

إن نازلى فاضل ، ومرجعى الأول هو بحث الدكتور الشناوى الصغير الممتع هى : نازلى مصطفى فاضل ابنة الأمير مصطفى فاضل شقيق الخديوى اسماعيل ، وعم الملك فؤاد ، وقد كان المفروض ان يصبح مصطفى فاضل وليًا لعهد اسماعيل وحاكمًا لمصر من بعده ، ولكن اسماعيل استخدم كل الوسائل المشروعة وغير المشروعه من الرشوة والدسائس وغير ذلك لكى يغير نظام الحكم للأكبر من أبناء هذه الأسرة ، جعله مقصوراً على أولاد اسماعيل وأحفاده ، وبذلك تم استبعاد مصطفى فاضل من ولاية العهد ، واصبح الخديوى توفيق وليًا لعهد أبيه اسماعيل ، ثم حاكمًا لمصر من بعده ، وفي عهده وبمساعدته تم احتلال الإنجليز لمصر سنة ١٨٨٢ .

وقد حول مصطفى فاضل قصره إلى مدرسة أصبحت المدرسة الخديوية القديمة ، وكان صاحب أكبر مكتبة خاصة في مصر أصبحت فيها بعد هى دار الكتب المصرية ومعظم كتبها كانت من عيون الأدب والتاريخ العربى .

وإذا كانت نازلي قد خرجت إلى الحياة العامة ، بعد الاحتلال البريطانى والذى بسببه كان الشعور الشعبى يضطرم بالكره للسراى ، فإن والدها - الأمير مصطفى فاضل - كان محبوبًا بين المصريين لموقفه من اسماعيل ولانصرافه للعلم والأدب دون السياسة » .

وقد انعكس الجو الأدبى والفكرى الراقى الذى نشأت فيه نازلي فاضل على سلوكها ، ففتحت فى قصرها الذى كان قائمًا إلى جوار قصر عابدين مكانًا أو صالونًا يلتقى فيه أهل العلم والأدب من صفوة المصريين الأصلاء فى مصريتهم مثل سعد زغلول وإبراهيم المويلحى والشيخ محمد عبده ، ولو لم يكن صالون « نازلى فاضل » يحتضن الفكر التحررى والتقدمى ، بل والثورى ما كانت يغشاه الفيلسوف والثائر جمال الدين الأفغانى ، أو تلميذه الصحفى « الشامى » الثائر أديب إسحق .

ثم يقول الدكتور الشناوى : « أنشأت الأميرة نازلى فاضل هذا الصالون داخل قصرها فكان أول صالون أدبى فى مصر الحديثة وكان رواد هذا الصالون لا يكتفون بالحديث حول الأدب والشعر والأمثال والحكم ، ولكنهم كانوا يتدارسون أحوال البلاد ذاتها سياسيًا وفكريًا وأدبيًا كما كانوا يتصدون للكتب الأجنبية التى تصدر عن مصر

فى الخارج وتهاجم مصر والأحوال الاجتماعية فيها مثل كتاب « داركور » الفرنسى الذى كان يعمل قاضيًا فى المحاكم المختلطة المصرية وهو كتاب عنوانه « سر تأخر المصريين » ، فكانت الأميرة نازلى فاضل تدفع رواد صالونها لتفنيد هذه المزاعم بالحجج السليمة وبالأسلوب الأوروبي ، أى الأسلوب المبني على الوقائع والبراهين العلمية والعقلية ، وليس الأسلوب المبنى على العاطفة والتعبيرات الإنشائية ، وكانت الأميرة تدفع كل النفقات اللازمة لنشر آراء المصريين وردودهم على الذين ينتقدونهم ويستهينون بهم من الأوروبيين ، سواء تم ذلك فى كتاب أو فى الصحف العربية والصحف الفرنسية .

« كل ذلك كان يتم دون أن تتباهى هذه الأميرة بما تفعل أو تمن به على شعب مصر » .

ثم يقول الدكتور الشناوى : « إنه على عكس ما كان منتظرًا لهذه الأميرة النبيلة من التقدير والاحترام ، فقد لقيت الأميرة تجاهلاً تاريخيًا يكاد يكون كاملاً ، هذا فضلاً عن أن البعض تعرض لها ولعدد من أصدقائها وعلى رأسهم الشيخ محمد عبده بالتشكيك ، لأن بعض الإنجليز كانوا من رواد صالونها ، أو لأن كلمتها كانت ذات وزن وتأثير لدى السفارة البريطانية والواقع أن الإنجليز كانوا يحترمونها ويقدرونها وكانوا يرون فى رواد صالونها هذا خلاصة الفكر الراقى بين الوطنيين المصريين الذين كان الإنجليز أنفسهم حريصين علي تعرف نبضهم ومحاولة استقطابهم إن أمكن ولكن هل يمكننا إلا أن نشك فى أن رواد هذا الصالون من أمثال سعد زغلول وقاسم أمين وقبلهم جميعًا محمد عبده كانوا مخلصين لمصر وفوق أى شبهة من شبهات العمالة للإنجليز وأن تقرب الإنجليز منهم لم يكن سوى سياسة وكياسة .

وهناك شهادة من رجل تثق فى شهادته ذكر فيها أنه كان زائرًا لصالون (مى زيادة) - الأدبى وصالون (نازلى فاضل) - الفكرى وأنه قد حضر قليلاً فى صالون نازلى وكثيرًا فى صالون مى .

ففى الأول الأرستقراطية والفرنسية . أما فى صالون مى فنحن على سجيتنا نحلق مع لغة الضاد وإن كانت مى تعرف أكثر من لغة (حددها العقاد لنا بخمسة) .

هذه هى شهادة الشيخ مصطفى عبد الرازق « ١٨٨٥ - ١٩٤٨ » والذى كان وزيرًا للأوقاف وشيخًا للأزهر وأستاذًا للفلسفة الإسلامية في جامعة القاهرة ، وكان والده صديقًا للشيخ محمد عبده ، وان مصطفى عبد الرازق نفسه تلميذًا للشيخ الإمام ومن أكثر الناس التصاقًا به ووفاء له ومعرفة بأفكاره وقد كتب مصطفى عبد الرازق بحثًا عن أثر المرأة فى حياة الشيخ محمد عبده يقول فيه : إن صالون الأميرة نازلي فاضل كان مجتمعًا للعظماء وقادة الرأى فى مصر فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، وقد اتصفت هذه الأميرة بصفات شخصية عالية جعلتها تميز قيم الرجال وتخص الشيخ محمد عبده بمكانة تجمع بين الحب والإجلال .

وكتب بحثًا آخر عن صالون مي زيادة قال فيه : إن مى أميرة النهضة النسوية في الشرق . بل أميرة النهضة الشرقية على إطلاقها .

وشعرت من كتابات الشيخ مصطفى عبد الرازق أن الصالونين كانا متعاصرين ولكن التاريخ يذكر أنهما كانا متعاقبين .. صالون نازلى فاضل سابق ، وصالون مى لاحق فقد بدأ صالون مى بعد وفاة الأميرة نازلى فقد توفت عام ١٩٤١ . وفتحت مى صالونها فى ذلك العام . ولمدة عشرون عامًا لاحقة .

وتؤكد السيدة سيزا نبراوى فى مذكراتها بأن (مى زيادة) التحقت بالاتحاد النسائى شأنها شأن الكثيرات من المثقفات المصريات آنذاك - وكانت تؤيد أتجاهه السياسى والاجتماعى وإن كانت تهتم أكثر بالموضوعات الأدبية - إلا أنها لم تعترض قط على عرضنا لأية قضية من قضايا المرأة - وبرغم أنها أطلعت على الكتب والمخطوطات التى سجلها صالون الأميرة (نازلى فاضل) فإنها لم تكتب فى الصحف إلا الموضوعات الأدبية والعلمية التى كانت مثارًا للجدل .

وأنها علقت على ما كتبه قاسم أمين حول كتاب المستشرق دراكور « سر تأخر المصريين » فى كتابه الأول (المصريون) بأنها محاولة جيدة لتحرير الرجل فالمرأة

تطالب بأن تكون متساوية بالرجل طالما أنها مثله فى الواجبات والمسئوليات - فهل كل النساء مستعدات لذلك ؟! وتساءلت « يا ترى متى يرضى الرجل بتقرير هذه الحقيقة .. أيها الرجل لقد أذللتنى فكنت ذليلاً . حررنى لتكون حرًا . حررنى لتحرر الإنسان » .

وأعود إلى صالون الأميرة نازلى فاضل ..

فعندما هاجم المستشرق الفرنسى « مسيو هانوتو » المسلمين والشرقيين وانبرى الأستاذ الإمام محمد عبده - مفتى الديار المصرية آنئذ - للرد عليه مركزًا على الجوانب العقائدية والتاريخية للإسلام ، فإن زينب فواز قامت بالرد أيضًا متناولة دور المرأة فى المعركة بين الشرق والغرب ، ورفعت مبدأ نطالب به الآن وهو تصميم السيدات على مقاطعة المنتجات الأوروبية والتمسك بالمصنوعات المحلية والوطنية .

وقد أمسكت الأميرة نازلى بالقصاصات التى كتبتها زينب فواز[1] وقدمتها لقاسم أمين وهى تقول له : أنظر ما ترد به المرأة المصرية على الفرنسيين ولكنك تهاجمنا مثلهم !!

والقصة الحقيقية لأفكار قاسم أمين ودور محمد عبده والأميرة نازلى فاضل فى تكوين هذه الأفكار هى قصة تختلف تمامًا عما هو شائع .

« عاد قاسم أمين فى أواخر القرن الماضى من فرنسا ، حيث درس القانون هناك وكتب بعد عودته مباشرة عدة مقالات فى جريدة « المؤيد » ومن العجيب أن

(١) زينب أفندى فواز (١٨٤٥ - ١٩١٤) سبقت قاسم أمين وهدى شعراوى فى تاريخ تحرير المرأة أعتبرتها (درية شفيق معجزة المرأة المصرية التى لم ينتبه إليها أحد .. وإن كان الأستاذ حلمى النمنم أصدر عنها كتابًا مؤخرًا ١٩٩٨م [لها أيضًا رواية بعنوان (حسن العواقب) منسية فى تاريخ الأدب النسائى] .

ولها رأى يعتبر رائدًا فى الحجاب .. لا حجاب بيننا وبين درس العلوم واكتساب المعارف ، فكشف الوجه واليدين ليس محرمًا على قول فريق عظيم من علماء الدين . ولكن العادة التى جرت على عدم كشفهما أخذت شكلاً عقائديًا وهذا مكمن الخطأ .. فإذا كان النقاب عرفًا وعادة فلا قدسية له . وعلى علماء الدين الا يجعلوا المرأة تنظر للدين كمسلمة من الدرجة الثانية فى مقابل الرجل المسلم الذى نراه يسهل له أشياء كريهة .

هذه المقالات التى كتبها قاسم أمين بعد عودته من فرنسا كانت قائمة على الهجوم العنيف ضد المرأة المصرية والحط من شأنها وطالب قاسم أمين فى هذه المقالات أن تلزم المرأة المصرية بيتها وأن تقتصر على شئون أسرتها وإلا تخوض بأى شكل من الأشكال فى الحياة العامة .

تلك كانت هى البداية العجيبة لقاسم أمين الذى اشتهر بعد ذلك بأنه أكبر وأول داعية لتحرير المرأة وتعليمها وخروجها إلى العمل والحياة العامة .

فماذا حدث بعد ذلك ؟

« غضبت الأميرة نازلى فاضل بعد أن قرأت مقالات قاسم أمين ضد المرأة المصرية وطلبت الأميرة من صديقها الشيخ محمد عبده أن يصحح لصديقه قاسم أمين أفكاره ، وأن يبلغه استياءها الشخصى وغضبها ، وأنها مستعدة أن تناقشه فيما زعم بالحسنى قبل أن تهاجمه علنًا فالمرأة المصرية فى نظرها ليست بهذا السوء والضعف والتفاهة والانغلاق ، وأن ما ينقصها هى الفرصة فقط وحرمانها من هذه الفرصة هو خطأ الرجال المصريين أولاً وأخيرًا وهو نتيجة ظلم هؤلاء الرجال للمرأة .

حمل محمد عبده رسالة الأميرة نازلى فاضل إلى صديقه قاسم أمين وقال له : إن المرأة المصرية متمدنة فهمها للأمور هو نفس فهم الرجل وإمكانياتها هى نفس إمكانياته ، فقط أعطوها الفرصة ، وأفرجوا عنها ، ووجه الشيخ محمد عبده إلى صديقه وتلميذه قاسم أمين دعوة إلى لقاء الأميرة نازلى فى صالونها ومن العجيب أن الشيخ محمد عبده كان متزوجًا منذ صباه من سيدة أمية لا تقرأ ولا تكتب ، ومع ذلك كان متحمسًا لآراء الأميرة نازلى فاضل مؤمنًا بها مستعدًا لتقديم الأدلة « الشرعية » على صحتها .

« ذهب قاسم أمين مع الشيخ الإمام إلى صالون نازلى فاضل ، فوجد أمامه سيدة تتقن الفرنسية والإنجليزية والتركية كأبنائها يحضر مجلسها قمم شامخة من رجالات مصر ، ويجدون فى هذا الصالون غذائهم الذهني والنفسى لا تجلس معهم فقط ، ولا تتجاور وتتجاوب معهم فكريًا وحسب ، بل كانت أكثر من ذلك كله صاحبة رأى مستقل ثاقب فى الأمور الداخلية والشئون العالمية .

ووجد قاسم أمين نفسه على حد قوله - أمام امرأة مصرية تدافع عن مصر ونساء مصر وحقوق مصر وكل ما يمت إلى مصر بصلة بل إنها تجادل الكتاب الأوروبيين وتهاجمهم بشدة إذا تعرضوا لمصر بسوء وهى تجادلهم فى هذا كله جهاداً وعلانية عندما يزورونها في صالونها وتفعل ذلك كله دون أى حرج وبلا مقابل تتوقعه ودون طمع فى أى مركز سياسى أو مكسب اجتماعى أو طنطنة إعلامية إنها امرأة أصيلة إذن .

« خرج قاسم أمين من لقاء الأميرة ممسوساً وعلم من هذه الأميرة أن المرأة المصرية لو تعلمت لأصبحت خيراً من المرأة الفرنسية التى كان قد رآها وكتب متأثراً برقيها وتقدمها ما كتبه ضد المرأة المصرية كذلك علم قاسم أمين من أستاذه وصديقه الشيخ محمد عبده أن الإسلام يدعو إلى تعليم المرأة ، بل ويجعل هذا التعليم واجباً .

وهنا دفعت الشجاعة الأدبية قاسم أمين إلى مراجعة تفكيره وكتابة ما يناقض أراءه الأولى ضد المرأة المصرية .

وهكذا ظهر الكتابان الشهيران لقاسم أمين وهما « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » بفضل الشيخ محمد عبده والأميرة نازلى فاضل معاً .

واستمر فى لعبه المكانو ووضع الأجزاء بحثاً عن سر الأميرة الغامضة والصورة الغريبة لها الموجوده فى منزل الزعيم سعد - حتى الآن - فى بيت الأمة ولنسمع هذه الحكاية التى كتبها د. زكى مبارك في مقالة جميلة عام ١٩٣٠ عن سعد زغلول بعنوان « غرام الزعيم » وبدأها بعبارة : إننى لم أقترف أثماً ، أو أسن سنة سيئة ، حيث أتحدث عن غرام رجل عظيم ، فمن المحال أن تخلو قلوب العظماء من العواطف والأهواء .

ليتحدث عن غرام سعد زغلول بعدها فى فترة دراسته الأزهرية ، وكيف أعجبته ابنة الشيخ الجوهرى ، الذى تصادف إن كان سكنه وقتها قريباً منها . وأترك الأمر لقلمه الجميل ....

« إن سعدًا فلاحًا وابن فلاح ، والفلاحون يخمدون نار الهوى بالزواج ، فما الذى يمنع من أن يسلك مسلك الفلاحين الشرفاء ، فيطلب القرب من آهل تلك المليحة الحوراء ؟!

وهكذا .. قهر الهوى سعد زغلول على أن يطلب يد ابنة الجوهرى ، ليسلم من نار هواه ، وليعرف كيف يقبل على دروس الأزهر بعناية والتفات . تشجع الشيخ سعد فطلب يد ابنة الجوهرى ، فرده الجوهرى برفق ، وهو يجهل ما ينتظر عمامة سعد من سيطرة أدبية وسياسية على أبناء هذه البلاد . ورجع سعد حزين القلب ، كاسف البال ، وقد خاب أمله فى هواه إلى آخر الزمان ، ثم نظر فرأى أن الفرار من الحي الأزهرى واجب مفروض ، لينجو من غمزات الذين شهدوا رده الأليم عن بيت هواه ، وأبناء الريف تؤذيهم ثرثرة السفهاء . لابد من ترك الحى الأزهرى ولكن أين يذهب ؟ وماذا يصنع ؟ .. إن أباه كان يرجو أن يصير من علماء الأزهر الشريف ، ومن أئمة الدين الحنيف ، فكيف يخلف ظن أبيه بلا تهيب ولا استحياء ؟ . ثم بدا له أن الكرامة الذاتية من مقاصد الكرامة الدينية ، فخلع العمامة والجبة والقفطان ، ولبس الحلة الإفرنجية واحترف المحاماة ، فأصبح اسمه « الأفوكاتو » سعد أفندى زغلول بشارع عابدين ، وأمسى مكتبه سامرًا يلتقى فيه كرام الرجال . ولم يكن بد للقلب المجروح من دواء ، وهل يداوى القلب المفطور بغير العمل الموصول ؟ » .
ويستمر د . زكى مبارك فى مقاله ...

« ثم عرف سعد التمهل والدقة بصلته بالشيخ محمد عبده ، فبدا يوسع من دراسته للشريعة والسياسة . وعرفت قدماه مع شيخه الجليل طريقها لصالون شهير كبير يشبه صالونات فرنسا ويفوقها لأميره متحررة اسمها « نازلى فاضل » فإذا حاله ينقلب . ولسانه يقلب بدأ يتحدث الفرنسية ، ويهتم بملابسه الأفرنجة وأصبح عنده قبعة بجوار الطربوش وشعرت أنه داوى جروح القلب ودوخه العمل معًا !! » .

« مر عام وعام وأعوام ، وسعد يجاهد فى سبيل المجد ليعرف من ردوه جاهلين أنهم أضاعوا « جوهرة » لن يرى « الجوهرى » مثلها ولو أضاع العمر فى البحث والتنقيب ، ثم استجاب الله لدعاء الوالدين الصالحين فاقترن سعد بفتاة هى بنت

مصطفى فهمى باشا رئيس وزراء مصر فى ذلك العهد » ، وهى الزوجة التى أصبحت معروفة فى تاريخ مصر الحديث باسم « أم المصريين صفية زغلول » .

وتستمر القصة بعد ذلك حتى يصبح سعد زغلول زعيمًا للبلاد ، ويعود من منفاه الذى فرضه عليه الإنجليز ، فتقام له حفلتان لتكريمه فى حى الأزهر .

« أما الحفلة الأولى فكانت في دار البكرى ، وتردد فيها الهتاف بعبارة يحيا «الشيخ سعد» . أما الحفلة الثانية فكانت .. أين كانت ؟ كانت فى دار الجوهرى الدار التى ردت سعداً خائبًا قبل أعوام بعيدة . وجرى الهتاف لسعد فى بيت الجوهرى أيضًا بعبارة : « يحيا الشيخ سعد » . والتفت سعد ذات اليمين وذات الشمال ، وسمح لعينيه بدمعتين محترقتين ، هما التحية لهواه الذى ذهب إلى غير معاد » .

ويفجر د. زكي مبارك سؤال يضاف للأسئلة ما معنى : أن حال سعد زغلول تقلب ولسانه قلب وبدأ يتحدث الفرنسية ويهتم بملابسه الأفرنجية . وأصبح عنده قبعة بجوار الطربوش ؟!

إن الأمر يشبه أغنية شادية : يجى أبويا يعوز فنجان قهوة أعمله شاى وأسقيه لأمى - وخيالك يجى على سهوا مافرقش ما بين خلتى وعمى ! إنه أقرب ما يكون لما استنتجه عمنا رشاد كامل في كتابه الصغير « الهانم والزعيم » !!

وإذا كان الأمر كذلك فكيف سمحت الزوجة الزعيمة الشدية قوى (صفية زغلول - أم المصريين) بأن تكون الصورة فوقها فى غرفة النوم ؟!

الأقرب للمنطق ما توصل إليه رجاء النقاش فى مقاله المنشور فى الأهرام بعنوان (الشيخ والصالون) وإن كان يقصد بالسيخ (محمد عبده) فيقول :

بعد أن تعرف سعد زغلول عن طريق الشيخ محمد عبده على الأميرة نازلى فاضل اختارته الأميره محاميًا لها وكان لها في حياته أثر كبير جداً « قد نصحته بدراسة اللغة الفرنسية ودراسة الثانوية بالفرنسية ثم هى التى زوجته من « صفية » كريمة مصطفى باشا فهمى رئيس وزراء مصر لمدة ١٥ سنة وكان سعد زغلول فلاحًا ابن فلاح وكان مصطفى فهمى والد صفية تركيًا ، وكان الرجل الأثير عند الإنجليز

والسياسى صاحب الكلمة المطلقة فى مصر فى عهد الاحتلال الأول وإذا كانت « نازلى فاضل » هى التى دفعت سعد زغلول إلي تعلم الفرنسية ، وزوجته - وهو الفلاح - من صفية ابنة مصطفى فهمى التركى الأرستقراطى المتعالى على الفلاحين فإن ذلك كله يساعدنا على إدراك مقدرة نازلى فاضل الفائقة على حسن الاختيار والتمييز وعلى فهمها الصحيح لمعادن الرجال فقد أدركت قوة شخصية سعد واكتشفت فى وقت مبكر عناصر « الزعامة والعظمة » فى هذه الشخصية .

وبعد أن تزوجت صفية فهمى من سعد زغلول نسيت انتماءها التركي وانتمت إلى زوجها الفلاح وساعدته أعظم المساعدة فى كفاحه الوطنى ، وأصبح اسمها أم المصريين صفية زغلول وهذا هو السبب فى اعتزاز سعد زغلول بالأميرة نازلى فاضل وحرصه على وضع صورتها فى حجرة نومه فى بيته الذى سمى باسم « بيت الأم » وأصبح متحفًا قوميًا بعد وفاة صفية زغلول سنة ١٩٤٦ .

وما نعرفه عن حياة الأميرة التى يصفها صلاح عيسى بالمشاغبة وهو نفس الوصف الذى أطلقه فى مقالة له عن نوال السعداوى فقد تزوجت نازلى فاضل فى صباها من أحد الأتراك هو « خليل شريف باشا » الذى صحبها إلى باريس حيث عاشت معه عدة سنوات - فيما يقال - وهناك اتصلت بثقافة باريس اتصالاً وثيقًا ، عن طريق القراءة والتجربة معًا ، ومن باريس وثقافة باريس وسحر باريس ، تشبعت نازلى فاضل بفكرة « الصالون الأدبى » فهذه الفكرة كانت شائعة فى فرنسا فى القرن العشرين فقد انتقلت الصالونات إلى المقاهى الباريسية المشهورة التى لا تزل موجودة ومن الواضح أن الفكرة الفرنسية عن « الصالونات » قد تأصلت تمامًا فى ذهن نازلى فاضل ، فنقلتها من باريس إلى قصرها الذى كان يقع خلف قصر عابدين أى أن صالون نازلى فاضل ببساطة ولد فكريًا فى باريس وتحقق واقعيًا فى عابدين ، بعد أن عادت الأميرة نازلى من باريس على اثر انفصالها عن زوجها الأول الثرى التركى « خليل شريف باشا » .

على أن حياة الأميرة نازلى فاضل الشخصية بعد طلاقها من زوجها التركى « خليل شريف باشا » توجد فيها صفحة غريبة أخرى هى زواجها من شاب تونسى .

هو « السيد خليل بوحاجب » وكان آنذاك رئيس لوزراء تونس وقد كان وقتها زواجًا بين أميرة كبير وزعيم خطير !!

وفى ألبوم صور سعد اللبان وزير المعارف في وزارة على ماهر التى ألفها مع قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ . صورة فيها : الأميرة نازلى بشعرها الطويل فى فستان بكم فى طول شعرها ولكنها بدون حجاب يحف بها : سعد زغلول . ومحمد عبده . وقاسم أمين والشيخ عبد الكريم سليمان وزوجها بوحاجب التونسى ومجموعة من كرام التونسيين وبالطبع لا تنتهى حكايتها - فقد عادت بعد ذلك إلى مصر دون زوجها . واستمر صالونها .

وفى سنة ١٩٨٠ ظهر فى مصر كتاب أستفز الجمعيات النسائية عنوانه « الحركات النسائية وصلتها بالاستعمار » أذكر أننى ناقشت فيه السيدة أمينة السعيد وقالت لى وقتها أن كاتبه مكانه مستشفى المجانين لأنه يهذى بكلام لا يصدقه عاقل ، لأنه كتاب ضد التاريخ .

وفيه اتهم درية شفيق بأنها أسست حزب « بنت النيل » ومجلتها من أموال السفارة البريطانية فى مصر !!

واتهم فيه صالون الأميرة نازلى فاضل بالاستعمارية وأنه كان يتلقى أوامره من اللورد كرومر شخصياً « المعتمد البريطانى فى مصر وقتها » واعتبره الكاتب صالونًا ضد الآداب والتقاليد الإسلامية وأنه سمح به بالاختلاط . وهاجم أيضًا هدى شعراوى .

وأذكر أن الاستاذة (أمينة السعد) دافعت بشدة عن هدى شعراوي ودرية شفيق وأذكر فى ذلك ما قلته من أن درية شفيق حصلت على الدكتوراه من فرنسا وموضوعها (المرأة فى الإسلام) وأنها كانت لا تجيد الإنجليزيةولكنها تعرف الفرنساوى كأهله وكان الأكساه يخرج من فمها « باريسى » . بل إنها كانت ثورية ضد الإنجليز .

وقد نشرت المسألة بالتفصيل فى كتابى « اعترافات نساء أديبات » .. ولكنها أنهت إجاباتها وثورتها بدون كلمة بالإيجاب أو السلب فى حق الأميرة نازلى فاضل ؟!

واذكر ان الكتاب أشار إلى اسم (رونالد ستورز) الذى كان مستشارًا شرفيًا للسفارة البريطانية وأكد أنه عضو شرف دائم فى صالون الأميرة نازلى !!

وذكر الكتاب فى وصف الرجل على لسان « السيد فهمى الشناوى » أنه « رجل استعمارى خطير ، وقد عمل في مصر منذ سنة ١٩٠٤ وكتب مذكراته بتفصيل وتطويل كاملين لمدة ثلاثين عامًا ، واشترك فى صنع الوزراء والملوك والمؤامرات و « ثورة لورنس » المسماة باسم « الثورة العربية الكبرى » ، كما ساهم فى إعادة الصهيونية إلى التاريخ بعد موتها بألفى عام ، ولم تكن تفوته فى تدوين مذكراته ، شأن كل السفراء الإنجليز وأعوانهم ، أدق التفاصيل » .

وعند العودة لمذكرات (رونالد ستورز) نجد ما يأتى (وهو جزء طريف عن الأميرة نازلى فاضل) :

« هى الأميرة الوحيدة من البيت المالك في مصر المتكلمة والمتحررة ، وقد دخلت علينا فى الساعة الثالثة وظلت تتكلم حتى الرابعة والربع فى إنجليزية رائعة دون أن تعطى فرصة لأحد فى الكلام . لقد كانت جميلة يومًا ما، ولكنها الآن لماحة ، ولها عينان فيهما نفاذ غريب وهى لا تخفى الاستهانة بملوك أسرتها - أسرة محمد على - واحدًا وراء الآخر » . ويصف « رونالد ستورز » قصرها فيقل : « تدخل قصرها حيث يوجد خلف البوابة عدد من الخدم الذين يسمون « بالأغوات » وكل « آغا » يسمى باسم زهرة أو حجر كريم . ثم تدوس على طرقات مفروشة بالظلط ومغروس فيها أشجار ظليلة وترقد تحتها « قطط ملكية » ، ثم عليك أن تصيح « يا ساتر أو يا ستار » ، ومعني ذلك ان رجلاً فى الطريق ، وأن على نساء البيت أن يحتجبن ، وسرعان ما يجرى عبد أو عبدان وهما يضحكان فى خفة ولطف على السلم أمامك ليبلغا « البرنسيسة » بوصولك . ثم تدخل أنت إلى الصالون وتنتظر .. لابد أن تنتظر ولو دقيقة ، ولكن لابد من هذا الانتظار حتى لو كان الموعد محددًا من

قبل . وحجرة الصالون لو تأملتها شعرت بالخوف ، ولكنها على أى حال تعبر عن شخصية هذه السيدة ، بخلاف صالونات حديثى النعمة فى مصر حيث يحشرون أشياء لا يفهمونها ولا ارتباط بينهم وبينها إلا مجرد إظهار القدرة على الشراء » .

وفى جزء آخر .

« كانت الأميرة نازلي وراء الثورة العرابية وفتحت قصرها لضيافة رجالها ، كانت تريد أن تنتقم لحق أبيها الضائع فى العرش . بعد أن خلخل الخديوى اسماعيل أساس التوارث فيه .. » .

كان من الممكن أن تكون سيدة سياسية من الطراز الأول ولكن وضع المرأة فى مصر لم يكن يسمح بذلك . فوضحت رؤيتها الأوربية لرجال أعتقدت بحكم ثقافتهم أنهم قادرون على تغير الواقع والتاريخ ، وكانوا يسمعونها وكأنها حورية أو جنية من قصصهم الغربية « ألف ليلة وليلة » . ويستمر ستورز[1] فى مذكراته :

« ولا شك أن الأميرة نازلى فاضل ، كانت تستطيع أن تفجر فى صالونها موضوعات تمثل المحرم عند المصريين كالحب والمرأة وكنت أعتقد أنها لن تستطيع أن تجد فى ذلك نجاحًا حتى اسمعتنى فى أحد الأيام قصة حب جميلة بين المحامى المصرى قاسم أمين وفتاة أحبها أثناء دراسته فى فرنسا اسمها (سلافا) !! وعندما تعرفت علي قاسم امين فى أحد جلساتها شعرت بأنه يخدعها فلا يمكن لرجل بهذا الخجل تكون له تجارب الحب التى سمعتها منها .. وعندما تجازينا الحديث وجدته شخصية منظمة جدًا حتى أنه كان يخص زوجته بساعتين يوميًا وبشكل منتظم من

---

(١) اديب إسحق (سورى) عمل فى الصحافة المصرية ووصل إلى سكرتير البرلمان المصرى فى برلمان (توفيق - عرابى) وحينما اسقطت الثورة العرابية (وزارة رياض) قال لعرابى : لقد اسقطت ستورز أن رياض هذا « رياضستورز » يتلقى أوامره منه - إن ستورز ليس مستشارًا للسفارة البريطانية ولكنه مستشارًا لوزارة رياض !!

ولنا أن نتصور صالونًا واحدًا جلس فيه (أديب إسحق) بجوار (ستورز) !؟

الخامسة إلى السابعة ، ويقضى بعدها مع كتبه ثلاث ساعات من السابعة حتى العاشرة . وحينما سألته وماذا بعد العاشرة . لم تكن عنده إجابة . ولما لم أفهم تفكهت الأميرة نازلى ففهمت أنه موعد نومه قالت له : لماذا يا قاسم بيه لا تجعل لزوجتك نفس الساعتين من الثامنة إلى العاشرة ؟! وضحكت وضحكت ولكن باقى الجالسين لم يفهموا ما قصدت ! .. » ويقول استورز فى موضع آخر ...

« كنت أؤثر وبعض زملائى أن نزورها في غير مواعيدها التى حددتها لصالونها .. حتى نستطيع أن ننعم بما عندها من أنواع فاخرة من النبيز !! ولكنها لم تكن تشاركنا » أما د. آمال السبكى فى كتابها « الحركة النسائية فى مصر » فإنها تقرر أن صالون نازلى فاضل جعل الرجال الأفذاذ يفكرون في قضايا مختلفة لم تكن تهمهم من قبل .

١ – ضرورة رفع الحجاب .

٢ – اهمية تعليم المرأة .

٣ – تقييد حق الرجل فى الطلاق .

٤ – حق المرأة فى العمل .

٥ – كيفية الحد من تعدد الزوجات .

فهل حدث فى صالون نازلى فاضل ما حدث فى صالون مى ؟! هل أحبها الفضلاء كما أحب مى الأدباء ؟! إن المرحوم « حسن أحمد حسن » المدرس بكلية الفنون الجميلة رسم مى زيادة فجعلها تنام على الأقلام . على أسنه الأقلام كفقراء الهنود حينما ينامون على المسامير آى جعل الجميع مشترك فى تعذيبها ولكن الأدباء يتحدثون أما الفضلاء فيصمدون .

فلقد وجدنا جملة رسائل بين مى والأدباء فى عصرها : عباس العقاد ، طه حسين ، الرافعى ، أحمد لطفى السيد ، أطوان بك الجميل ، الشيخ مصطفى عبد الرازق ، جبران خليل جبران وفى عام ١٩٧١ نشر عامر العقاد بعض رسائل مى والعقاد وقال فى فصل عنها لو جمعت الرسائل التي كتبتها مى أو كتبت لها لكانت بضع مجلدات !!

ولقد وجد د. عثمان أمين أحد كبار المفكرين المعاصرين الذين اهتموا بتراث محمد عبده - خطاب بالفرنسية كتبته الأميرة بخطها إلى الشيخ محمد عبده تدعوه فيه إلى القدوم لرؤيتها ونصه (صديقى العزيز : أرجوك أن تحضر لرؤيتى هذا المساء بعد الساعة السابعة أنا أسفة إذا فاتتنى رؤيتك أمس . والتوقيع صديقتك المخلصلة : نازلى) .

وإذا كان هذا ما حدث مع الشيخ محمد عبده على سن ورمح (صديقى العزيز/ الساعة السابعة / نازلى) فما نوع الخطابات التى يمكن تخيلها بينها وبين سعد زغلول - محاميها - ومكمن سرها !؟

إن العقاد له مقال جميل عنوانه (رجال حول مى) يصف فيه أثر مى زيادة وصالونها علي زوارها ولكن ليس عندنا أحد قد كتب مقالاً عن (رجال حول الأميرة نازلى فاضل) !؟

هذا المقال يبرز من خلال دقة الملاحظة ما كان عليه هؤلاء المترددون على صالون الأديبة (مى) .. فيقول العقاد :

لكل منهم أسلوبه فى تعبيره داخل هذا الإطار من اللجنة لطفى السيد وأسلوب الجنتلمان الفيلسوف . وعبد العزيز فهمى وأسلوب الصمت الخجل ، كآنه الصبى فى مجلس الفتيات القريبات .

وشبلى شميل وأسلوب المصارع فى حلبة الفكر والشعور .

وسليم سركيس وأسلوب الدعاية للبيوتات فى صالون من أشهر صالونات البيوت .

ومصطفى صادق الرافعي وأسلوب المفاجأة بالكتابة الذى يغني الاطلاع عليها من السماع .

واسماعيل صبرى عبد الله وأسلوب الشاعر الذى يعلم أن حق الغزل الصريح أولى بالرعاية من حق الكتابة والتلميح ، وهو الذى كان يكتب الأبيات قبل يوم الزيارة مستئذنًا فى الحضور .

إن لم أمتع بمى ناظرى غداً

لا كان صبحك يا يوم الثلاثاء

وأحمد شوقى وأسلوب الإيحاد من بعيد ، وعليه تعليق الفيلسوف المعجب بالطرفين .

تتألف لجنة من لجان المحافل الثقافية ، فتخرج شوقى من صمته مرة واحدة ليشترط ان تكون (مى) سكرتيرة اللجنة ، وإلا فلا احتفال .

ويدركه لطفى السيد ليسأل : أهذا اقتراح شعرى أو اقتراح فى النظام !!

وغير ذلك من الأساليب كثير على كل لون ، ومن كل طراز ، ولكنها كلها أساليب كثيرة على كل لون ، ومن كل طراز ، ولكنها كلها أساليب التهذيب واللباقة التى تناسب الزوار وصاحب الدار .

ولأنيس منصور فى كتابه (فى صالون العقاد كان لنا أيام) هذه العبارة القاسية : هل كانت مى زيادة غانية تتحدث في الأدب - أو أديبة تعرف الفجور - إنها لا هذا ولا ذاك .. وإنما أوقعتها الأقدار فى أوكار الذئب الفكرى للرجل الشرقى . لقد حاول أن يجرب معها الجميع !!

وحتى لا يحدث عندى وعندك تداعى أو استرسال أو رؤية تطابقي بين الصالونين أتحدث عن النتائج . ما الذى فعله هذا الصالون فى ثلاثة من القمم انضموا عن رضاء واقتنع وبقوة لرفاعة رافع الطهطاوى : الشيخ محمد عبده والزميلين سعد زغلول وقاسم أمين فى قضية تحرير المرأة .. والأربعة للمصادفة البحتة أتقنوا الفرنسية !!

فإنه يحكى ..

وعاد قاسم أمين إلى مصر فى صيف ١٨٨٥ ليعين فى سلك النيابة فيتعرف علي أحمد لطفى السيد ثم يعين بقرار واحد مع سعد زغلول ليكونا قاضيين بمحكمة الاستئناف .

كان كل منهم مهموماً بما اعتاد عليه الناس أما قاسم أمين فقد أمضى سنوات طويلة يفكر فيما اعتاد عليه الناس فى العلاقة بين الرجل والمرأة ، وأدرك أن المجتمع

المصرى يضع الرجل والمرأة علي أبعد مسافة ممكنة بعضهما عن بعض . وهنا لمعت فكرة كتابه (تحرير المرأة) .

وعرض قاسم أمين على صديقه أحمد شفيق باشا رئيس الديوان الخديوى مشاركته فى الكتاب ، ولكن الخوف تغلب على أحمد شفيق فاعتذر بقوله « الناس لم تتهيأ بعد لقبول مثل هذه الدعوة » .

ثم انتهز فرصة اصطيافه فى جنيف مع أحمد لطفى السيد وسعد زغلول سنة ١٨٩٨ فعرض عليهما أفكاره وطلب مشاركتهما معه ولكنهما اعتذرا إلا أن بعض الباحثين يرى أن كتاب (تحرير المرأة) ليس عملاً فرديًا لقاسم أمين ولكنه عمل جماعى كتب فيه الشيخ محمد عبده الفصول الخاصة برأى الشريعة والإسلام فى الزواج والطلاق والحجاب وتعدد الزوجات ، وإن الأفكار الخاصة بالحرية كتبها لطفى السيد ، وإن من يقرأ مذكرات سعد زغلول وهذا الكتاب يستطيع أن يلمح بصمات سعد زغلول عليه !!

وفى سنة ١٨٩٩ استقر رأى قاسم أمين على شىء ، لقد سأل نفسه : من الذى يحب صاحبه أكثر، أهو الذى يكشف الستار عن عيوبه أو الذى يغض البصر عنها ؟. واختار أن يكون الصديق المكروه لا العدو المحبوب وكتب كتابه (تحرير المرأة) واعتقد أنه لولا تعرضه لمسألة الحجاب لمر الكتاب فى هدوء . ولكن قاسم أمين قال :

(إنه لا يجد نصًا فى الشريعة يوجب الحجاب على هذه الطريقة المعهودة ، ولكنها عادة الدين منها براء)

وبعد أن جرد الحجاب من هذه الحماية الوهمية يرد قاسم أمين على نظرة المجتمع للحجاب : « هل الحجاب مانع من الفتنة ؟ هل اعتبرت عزيمة الرجل أضعف من عزيمة المرأة حتى أبيح للرجال أن يكشفوا وجوههم لأعين النساء ، ومنع النساء من كشف وجوههن لأعين الرجال ؟ إن أسباب الفتنة ليست فيما ظهر من أعضاء المرأة وما خفي ، بل فيما يصدر عنها من أفاعيل فى أثناء سيرها ، والنقاب

من أشد أعوان المرأة على ذلك ، إذ هو يخفى شخصيتها ، ولو كان وجهها مكشوفًا فإن كرامتها ونسبتها إلى عائلتها يشعرانها بالحياء

والخجل في كل عمل يتوهم منه أدنى رغبة منها فى استلفات الأنظار ، ولكنه بعد ثلاث صفحات يضع تحفظًا آخر « إنى لا أقصد رفع الحجاب دفعة واحدة والنساء على ما هن عليه اليوم ، فإن هذا الانقلاب ربما ينشأ عنه مفاسد جمة لا يتأتى معها الوصول إلى الغرض » فلا نعرف أهو يهاجم الحجاب أم يهاجم منظر المرأة وهى تبدو كخيمة تمشى على قدمين ، خيمة لا يبدو منها سوى ثقبين يسمحان لعينيها بالرؤية !!

ورغم هذه المطالب المتواضعة المرتعشة التى لو عرفتها الآن ابنتى « رانيا » فى رجل لاعتبرته رجعيًا سلفيًا إلا أن الدنيا قامت على « قاسم أمين » ولم تقعد ، وصدر في مواجهة كتاب واحد له أربعون كتابًا آخر ، بل إن الزعيم مصطفى كامل هاجمه فى صحيفته واعتبره متآمرًا مع الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية !!

ومن هذه الكتب المعارضة لكتاب (تحرير المرأة) : الجليس الأنيس فى التحذير مما فى تحرير المرأة من التلبيس » « والدفع المتين فى الرد على قاسم بك أمين » .

وكان من ضمن ما قال عبارة غريبة لم يلتفت إليها أحد إلا أنه فى عام ١٩٧١ التفتت إليها نوال السعداوى فكتبت كتاب (المرأة والجنس) أما العبارة :

« إن المرأة التى تقدم لزوجها المتعة يجب أن تحس هى أيضًا معه بالمتعة ، وإذا أعطت لابنها الحرية فيجب ألا تحرم منها وإذا طالبناها أن تمنح الأسرة السعادة فيجب أن تكون هى أول من يحصل عليها ففاقد الشئ لا يعطيه ، فيجب ألا يكون فى قاموسنا الشعورى واللاشعورى مترادفات لكلمة المرأة تعنى النزوة والخيانة والسرير والشهوة والضعف » .

ولكن قاسم أمين اعترف بأن ما يكتبه غريبًا : سيقول قوم إن ما أنشره اليوم بدعة !!

وإذا بسعد زغلول يفعل ما جاء فى الكتاب . بينما صاحب الكتاب نفسه قاسم أمين يعجز عن ذلك أقلع سعد زغلول عن القمار حتي يعطى لنفسه وقتًا يناغش ويسلى « زوجته » واستمر قاسم أمين على الترابيزة الخضراء حتى وقع خلاف بين الصديقين فيما بعد .. حينما زاد توقيع سعد على ضمان ديون صديقه . عَلم سعد زغلول زوجته وأحضر لها مدرسًا وأعطى لنفسه وقتًا للدراسة واستولى قاسم أمين على أموال زوجته !! ومات سعد على حضن امرأته .. ومات قاسم وفى جيبه شيئًا واحدًا صورة لامرأة أخرى هى إحدى المطربات فى ذلك العصر !!

لقد أعتنق سعد زغلول قضية الأميرة نازلى فاضل أمام قاسم أمين فاكتفى بكتاباتها . وفى مجلة (نصف الدنيا) مقالة جميلة للمبدعة « سناء البيسى » توضح بالتفصيل كيف كانت زوجة قاسم أمين تذهب لمنزل سعد شاكية باكية تلعن اليوم الذى عرفت فيه هذا الرجل ؟! لقد كبتها وأفلسها !! ويكتب عن ذلك « مصطفى أمين » فى كتابه : من واحد لعشرة .

« - إن بعض الناس يسألون فى دهشة :

- ما سر حماس هذا الرجل الفلاح الأزهرى للمرأة المصرية ؟! ما الذى جعله يشجع صديقه قاسم امين على إصدار كتابه عن تحرير المراة . ويقف إلى جواره فى الحرب التى أعلنها الرجعيون ضد سفور المرأة ؟ ما الذى جعله يؤيد سفورها فى ثورة ١٩١٩ ؟

بعض الناس يعتقدون ان الفضل فى آرائى التقدمية بشأن المراة يعود إلى زوجتى صفية . وهذا غير صحيح . وبعض الناس يتصور اننى اخذت من زياراتى لباريس للحصول على ليسانس الحقوق ، إيمانى بالمراة ، وهذا غير صحيح أيضًا . الواقع اننى مدين بإيمانى بحق المرأة فى الحرية والمساواة لأمى مريم بركات . كانت أمى فلاحة لا تقرا ولا تكتب ، ومات ابى وتركنى أنا واخى فتحى واختى أم رتيبة وسعيد اطفالاً ، وكانت امى صغيرة السن عندما اصبحت ارملة . وكانت جميلة . وكان أولاد ابى من زوجته الأولي اكبر منها سنًا . وحاول أعيان الناحية أن يتقدموا

إليها عارضين الزواج فأبت وقالت : إننى سأكرس حياتى لتربية أولادى . واستطاعت وحدها أن تقاوم الإغراء والضغوط من أسرتها كى تتزوج مرة أخرى . وإذا بها وهى امرأة تصبح عميدة الأسرة كلها . لقد تمكنت بقوة شخصيتها أن تفرض احترامها على كبار الأسرة الرجال . ثم فرضت شخصيتها على القرى المجاورة . وكنت أرى الرجال يحضرون للاحتكام إليها فى خلافاتهم . وقد ورثت عن أبى اندفاعه وثورته ، وورثت عن أمى حكمتها وحسن تدبيرها ، فعندما أغضب . فهذا هو أبى ، وعندما أكون حكيماً فهذه هى أمى ! وحينما اندفع . فهذه هى ثورة أبى ، وعندما أتدبر أمري وأسوس نفسى ، فهذه هي سياسة أمى وحكمتها . وكنت معجباً بشخصية أمى القوية وثباتها وصمودها . وهذا هو الذي جعلنى أتمسك بإيمانى بالمرأة .. فإذا كانت أمى الفلاحة الأمية قد استطاعت أن تفعل كل هذا ، فإن من حق المرأة المصرية أن تتساوى بالرجل » ..

وفى موضع آخر :

« وكثيراً ما كان سعد يدعو عبد الرحمن فهمى لتناول الغداء معه فى بيته مع أفراد أسرته . وكان الطفلان « يقصد على ومصطفى أمين » يلاحظان دائمًا شيئًا غريبًا . وهو أن عبد الرحمن لم يجئ مرقواحدة إلى بيت سعد مع زوجته ، وكان متزوجًا للمرة الثانية . وكان الطفلان يلاحظان أن عبد الرحمن عندما يحضر للغداء كانا يتخليان له عن المقعد الأول في المائدة على يسار سعد . ويتأخر مكانهما إلى المقعدين التاليين ، وكانت صفية تجلس فى المقعد المقابل له عن يمين سعد . وكان عبد الرحمن عندما يجلس يضع عينيه دائمًا فى الطبق الذى أمامه ، ولا يرفعها فى وجه صفية ، ولا فى وجه والدتهما . وكان لا يوجه الحديث إلا لسعد باعتبار أن صفية ورتيبة غير موجودتين على الإطلاق !

وكان غريبًا فى تلك الأيام أن يدعى رجل من غير أفراد الأسرة للجلوس على مائدة واحدة مع سيدات الأسرة ، ولكن الفلاح الأزهرى القديم سعد زغلول كان لا يجد غضاضة فى أن يجلس أصدقاؤه المقربون مع أسرته لتناول الغداء والعشاء ».

وفى موضع ثالث :

« وكانت هذه ظاهرة غريبة فى بيت سعد زغلول ! إن معاصريه ما كانوا ليسمحوا لزوجاتهم برؤية أصدقائهم ، ولا يذكر أحد من أصدقاء عدلى يكن باشا أنه رأى وجه زوجته . ولا يذكر أقرب صديق لحسين رشدى باشا أنه تناول معه الغداء فى حضور زوجته .. بل الأغرب من هذا كله أن قاسم أمين زعيم تحرير المرأة . كان يتردد باستمرا على بيت سعد زغلول ويتناول الغداء معه ومع صفية ، ولكن زوجة قاسم أمين لم تحضر هذا الغداء الدورى مرة واحدة !

ويذكر الطفلان بعد وفاة قاسم أمين بعشر سنوات أن زوجته كانت تأتى بين وقت وآخر لزيارة صفية زغلول ، فلا تكشف وجهها أمامهما ، بل إنها إذا تناولت الغداء مع صفية ، كانت تعد لها مائدة فى غرفة أخرى ، ويتناول سعد الطعام وحده ، ذلك أن قاسم أمين الرجل الذى دعا المرأة المصرية إلى نزع الحجاب فشل فى إقناع زوجته بأن تنزع حجابها ، وظلت متمسكة بوضع الحجاب على وجهها إلى ما بعد أن نزعت أغلب المصريات حجابهن ! « على فكرة مصطفى أمين يتحدث بصفة عامة عن النقاب بمعنى الحجاب !؟ » .

وكان أكثر ما يؤلم قاسم أمين .. أنه لم يفلح في إقناع زوجته التى تقيم معه فى بيت واحد بالرسالة التى أمن بها » !

ولقد سبب حماس سعد للمرأة المصرية كثيراً من المتاعب له . فعندما أصبح وزيراً للمعارف واهتم بتعليم البنات ثار عليه الخديوى ، وهاجمته الصحف واتهمته بالخروج على الدين الحنيف !

وكان من رأى سعد دائماً أن أى ثورة فى مصر لا يمكن أن تنجح إلا إذا اشتركت فيها المرأة مع الرجل ، وكان هذا الرأى يلقى معارضة شديدة من أصدقائه الذين يعدون معه للثورة وخاصة الشباب منهم ؟

وكان سعد يردد دائماً قصة وقعت أحداثها فى مؤتمر عقد فى مدينة بروكسل فى سبتمبر ١٩١٠ برياسة الزعيم محمد فريد . فقد وقفت الزعيمة الهندية المعروفة السيدة كاما وقالت للأعضاء وهى لا ترى بينهم سيدة مصرية واحدة :

- أيها المصريون ! إنى أسألكم أين نصف سكان مصر ؟ إذا كان النصف الأول من سكانها هم الرجال . فأين إذن الأمهات والأخوات والزوجات ؟ إن الحرية لا تتحقق بنصف الأمة ، إنها تتطلب جهداً مشتركاً من الرجال والنساء !

ولذا اعترف قاسم أمين بريادة سعد زغلول فأهداه فى ١٥ أغسطس ١٩٠٠ كتابه « المرأة الجديدة » كان الإهداء بهذه العبارة :

[إلى صديقى سعد زغلول .

فيك وجدتّ قلباً يحب وعقلاً يفكر وإرادة تعمل .

أنت الذى مثلت إلىّ المودة فى أكمل أشكالها . فأدركت أن الحياة ليست كلها شقاء وأن فيها ساعات حلوة لمن يعرف قيمتها .

من هذا أمكننى أن أحكم أن هذه المودة تمنح ساعات أحلى إذا كانت بين رجل وزوجته .

ذلك هو سر السعادة التى رفعت صوتى لأعلنهُ لأبناء وطنى رجالاً ونساءً] .

* * *

الفصل الثانى

سفر الخروج

النسائية ....
خلف راية الزعيم !!

هدى شعراوى

١٨٧٩ - ١٩٤٧

هدى شعراوى :

اسمها الحقيقى : هدى محمد سلطان وعند آخرين نور الهدى محمد سلطان .

ولها اسم حركى تاريخى : رائدة الحركة النسائية فى مصر .

أما النساء فيسمونها : هدى هانم شعراوى .

ولها اسم لا تحبه : أم محمد !! .. نادتها به « المطربة فاطمة سرى والزعيم الوفدى النحاس باشا » .

ولدت بالمنيا فى ٢٢ يونيه ١٨٧٩ . وأبوها هو محمد سلطان قائمقام الخديو توفيق وخصم الزعيم عرابى أما أمها فجارية بيضاء جميلة (ألبانية) وهبها الخديوى إسماعيل لأبيها فأنجبت منه أخيها « عمر » الذى أصبح (عمر سلطان باشا) وفتاة بيضاء كأمها هى « هدى » نفسها .

وتوفى أبيها وهى فى الثامنة من عمرها ، ونشأت وسط أمها وأخيها . وابن عمتها (على شعراوى) الذى تولى الوصاية عليها وعلى أخيها كوصية الأب . ولقد وفرت لها أسرتها نشأة كريمة وغنية وثرية فتعلمت الفرنسية والعربية والموسيقى .

وكان (على شعراوى) فى ذلك الوقت متزوج وأنجب ابنه الأكبر « حسن » الذى أصبح كالعادة بين من يملكون الأرض والثروة (حسن شعراوى باشا) .

ويبدو أن على شعراوى الذى كان يكبر هدى بثلاثين عامًا قد زار كيوبيد قلبه فأحب هدى وكتم حبه وعف .. وبخاصة أنها كانت تناديه بير شعراوى وهى تعنى بالفرنسية « بابا شعراوى » إلا أن الأمور كانت تسير لصالحه فهو رجل طيب ، يحبه الجميع ، نظيف اليد ، عف اللسان ، مهيب الطلعة ، مستقيم السلوك من بدء حياته وحتى نهايتها .

واستطاعت أم « هدى » أن تلمح فى عيناه ما لا يخفى فهو كريم معهم بما يزيد عما كان عليه الأمر فى حياة زوجها محمد سلطان ، وهو ضعيف أمام تلك الفتاة الدلوعة الناضجة ، كبيرة الجسد بحكم الثراء وجودة الغذاء ورفاهة الكساء . إنها كما يقول الفلاحين « زرع بدرى » أنوثة قبل الأوان وكانت هناك مجموعة من المصالح أرضه وارضها ، وضياعه وضياعها ، وكما يقولون المصالح تتصالح !! والتقت الرغبات . بأن يتزوج (على شعراوى) بـ (هدى سلطان) على عكس رغبة وإرادة هدى . فقد كانت رغبة من أمه (شقيقة محمد سلطان) ورغبة من أم هدى نفسها فى أن يكون طفلاها : عمر وهدى فى كنف ورعاية (على شعراوى) ليس بالوصاية فقط ولكن برابطة أقوى « الزواج » وقد تهلل (على شعراوى) حينما وجد أبوه حسن باشا شعراوى « الفلاح الذكى » الثرى (عمدة المطاهره) مركز المنيا الذى لا يجلس أمامه إلا متهيباً لا يمانع فى هذا الزواج !!

بل إن حسن باشا إنما جعلها وكأنها وصيته الأخيرة لأنه كان مريض فقد كان الرجل يكرر فى أيامه الأخيرة شيئين : ثقة محمد سلطان فيه وفى أهله حتى أنه جعل ابنه وصياً على أسرته وثروته دون أحد غيره رغم إن ثروة محمد سلطان وقتها كانت (اثنى عشر الف فدان) وطبعاً غير الفكة !!

أما الشيء الأخر فهو جميل (محمد سلطان) أبو هدى عليه فهو لا ينسى نفوذ شقيق زوجته ووقوفه معه حتى أصبح نائب المنيا فى برلمان ١٨٦٦ م . ثم كيف كانت له اليد الطوله فى وصول ابنه (على شعراوى) نفسه ليصبح من بعده نائب المنيا فى برلمان ١٨٨١ م ؟!

وتوافقت الأوضاع الأسرية . وتزوجت هدى من على تحت ضغط النساء والزن على الودان . ويقال أنه بعد سنتين من الزواج ضيق خلالها على شعراوى على هدى الخناق فى الخروج والزيارات ونقلها معه إلى الإقامة فى الريف انفصلاً .

فلم يكن تحول هدى سهلاً كان عليها أن تحول احترامها لحب وبنوتها إلى زواج وحياءها إلى علاقة زوجية ولا يعرف هل كان الانفصال بالطلاق . أم كانت فترة هدنة بعد أن فشلت التغيرات المتلاحقة بالصدمة والسرعة والمفاجأة لجعل هدى

عروسة صالحة للزواج بكل أبعاده ومراميه . والغريب أن هذا الانفصال استمر سبع سنوات !؟ قضت هدى منها فى الإسكندرية معظم الوقت أما الباقى فسافرت خلاله إلى تركيا .

أما (على شعراوى) فشغلته السياسة والوطن وقضايا كثيرة . ولظروف كثيرة عاد الود . فعادت هدى لزوجها . كان من هذه الظروف ترك على شعراوى أمر الأرض لأخو هدى - عمر - فبارت وقل محصولها ، وكان منها وفاة زوجة على شعراوى الأولى . أما الأكثر تأثيرًا فهو هدى نفسها التى تغيرت فصارت أنضج وأضيف لكمال الجسم أناقة غربية فى ما ترتديه . وملكت شخصيتها الإقناع بدلاً من الغضب والبكاء الذى عانى منه على شعراوى فى البداية ووافق على شعراوى على كل شروطها .. السماح بالدخول والخروج والإقامة فى القاهرة ووضع ثروته كلها تحت تصرفها وكانت وقتها (تسعة آلاف فدان) وأن يكون لها نشاط اجتماعى كما له نشاط سياسى !؟

ورغم ذلك لم يكن زواج هدى شعراوى عسلاً كله . إنما كان فيه الخلاف والبعد والجفوة وترك البيت فإذا كان على شعراوى قد أرخى اللجام لهدى . فإنه لم يتركه من يده . فقد كان الرجل بطبعه فلاح ومسلم متزمت وتروى عنه أقاصيص تجعله يلحق بركب العارفين بالله وكان أيضًا ثائرًا استطاع أن يكون فى فترة قليلة أحد دعامات حزب الوفد . ويكفيه ما قاله عنه « عبد العزيز فهمى » : أما على شعراوى فكان من خيرة الوطنيين المخلصين ، بل إنه من أخلص رجال مصر ، وأكثرهم حبًا للوطن ، وكان جريئًا فى الحق يقول ما يعتقد ويحافظ على كرامته لأقصى حد .

وقد تعجب فى أن هدى شعراوى كانت لا تواجه زوجها مباشرة بما تريد من عمل أو نشاط وإنما تستعمل عبارة : صفية زغلول بتقترح : سعد باشا زغلول بيقول !!

وكانت موافقته التزامٌ حزبيًا أكثر منها رضاء زوجى ! .. بل إننا لا نعجب إذا عرفنا أن على شعراوى كان معارضًا لخروج نساء الوفد فى ثورة ١٩١٩ !! وعارض بشدة فى أن تكون لزوجته سكرتيرة ذات ثقافة فرنسية وجذور مسيحية « سيزا نبراوى » وقال لها : يا ستى شوفى واحدة ريفية !!

وثار ثورة غريبة عليهما حينما أعلنت فى أحد اجتماعاتها إرسال « أحمد الصاوى محمد » ليتعلم فى السربون على نفقتها الخاصة لأنها شعرت أنه ظلم من النظم الموجودة بالجامعة . لم يكن معترضاً على الفعل وإنما على الشكل فهو على استعداد أن يرسل الصاوى ومعه خمسون للسربون على نفقته ولكن لماذا تفعلهما امرأة ؟! وزوجته ؟! إنها تقبض منه لتنفق على نشاطها أضعاف ثمن بعثة (الصاوى) فلماذا يظهر مالها الخاص الآن !!

وبعبارة زوج فلاح قال على شعراوى : إشمعنا الصاوى ؟! ما عندك البنات !! وفى عبارة أكثر غضباً يا ستى شوفى ابنك (محمد) ولكن هدى شعراوى استمرت فى عنادها حتى أنها عند زواج الصاوى ، جعلت الزفاف فى بيتها واختارت له أجمـل عروسة فى مصـر « درية شفيق » . وتم ذلك فى تكتم ، لم يفضحه إلا جريدة الأهرام .

أما الثورة الكبرى ففى سنة ١٩٠٦ : حينما فوجئ أثناء صلاة الجمعة بإمام جامع سلطان أبو العلا . يسب ويصب لعناته وويلاته على امرأة تدعو للفسق والفجور - قال الشيخ : آفى المحروسة والإسلام بين أظهرنا ، تخرج بدعة . بإنشاء نادى خاص للنساء لمزاولة الرياضة واللعب والسباحة .. ،ما يتبع ذلك من هرج وسفور ومرج وتبرج - وأنهى الشيخ خطبته بأنها بدعة ، وكل بدعة ضلالة .. وكل ضلالة فى النار .

وغضب على الشعراوى مع الغاضبين ودعا مع الشيخ والداعين :

- اللهم أسكت كلمتها وأوقف بدعتها .

- آميـــــن .

- اللهم رد دعوتها ومن يدعون معها بها وأرجعهم خائبين مدحورين .

- آميـــــن .

وعاد الشعراوى لمنزله وعلى مائده الغذاء سمع زوجته هدى شعراوى .. وفوجئ بأنها صاحبة الفكرة إياها زوجته المصونة والجوهرة المكنونة تدعو لنادى خاص

للنساء يلبسن فيه الشورت والمايوه ويلعبن السباحة !! وسألها زوجها : سيزا نبراوى زنت على ودانك كعادتها !!

لكن الروايات تجمع على أن حب (هدى شعراوى) كان قويًا ومؤثرًا على « على شعراوى » فكان يعترض عليها ولكنه لا يستطيع الفكاك منها .

يثور ويكسر الأطباق ويترك المنزل للريف الذى أحبه ولكنه لا يعرقل مسيرتها ولا يهدم أعمالها ولا يقف ضدها . وتتفق الروايات على أن جراءة هدى شعراوى كانت وراء دفع (على شعراوى) فى حزب الوفد . وأنها سعت بقوة ليكون زوجها مشاركًا بشكل تاريخى فى الحركة الوطنية ، ولعل يوم ١٣ نوفمبد ١٩١٨ كان بداية إيمان على شعراوى (بعقل زوجته) .. فقد كانت وراء أقدامه على مشاركة : سعد زغلول وعبد العزيز فهمى فى مفاوضات الإنجليز مع (سير رونالد) وعرض القضية على مؤتمد الصلح فى « فرساى » وبأسماء الثلاثة وقع المصريون على عريضة تاريخية وغريبة عليها ثلاث ملايين توقيع بآن الثلاثة ممثلين للأمة فى قضية الاستقلال مع الإنجليز .

ولم تكن هدى تملك خجل على شعراوى فقامت بدور مؤثر من خلال « لجنة الوفد للسيدات » فى جمع هذه التوقعات . وبالطبع وجدنا على العريضة أسماء إناث ونساء لم تتح لهن الظروف كتابة أسماءهن من قبل . كن ينظرن لأسمائهن مكتوبة وكأنهم يرونها لأول مرة . لها أثر وفعل ووضع سياسى ومصيرى فى حياة أمتهم .

ويذكر أن بعض الريفيات قلن لهدى شعراوى : إننا لا نعرف الكتابة لكننا نريد سعد وزملاؤه !؟ وبينما كانت العريضة بها بعض بصمات الرجال .. كات هدى شعراوى تجمع النساء وتدريهن على كتابة الاسم . فهى لا تحب أن يرى الإنجليز المرأة المصرية مجرد بصمة !!

وبالرغم من نضج نشاطها فى عامى ١٩٠٧ ، ١٩٠٨ وسفرها وحضورها مؤتمرات خاصة بنشاط المرأة ساعدها فى ذلك حيويتها وأموالها .

فإنها حينما دخلت الوفد بجانب زوجها ومارست من خلاله نشاطها ، تدخلت السياسة وأسمتها هدى شعراوى بدلاً من هدى محمد سلطان . وهو ما حدث من قبل مع زوجة الزعيم سعد زغلول سموها صفية زغلول بدلاً من صفية مصطفى فهمى . فقد كان لكل من الأبوين . محمد سلطان ومصطفى فهمى . علامة وتاريخ متين مع الإنجليز !!

فلقد أراد الوفد أن يكسيها بلا أى انتقادات - فأبوها محمد سلطان كان موضع هجوم شديد من الشيخ محمد عبده أستاذ سعد زغلول . وكان يرى قتله لخروجه على الخط الوطنى وانضمامه إلى الخديوى توفيق ضد عرابى وكان سعد زغلول نفسه مع ثورة عرابى يؤيدها على عكس ما كان الوضع فى الحزب الوطنى الذى كان يعتمد على تركيا (الباب العالى) .

فقد حمل محمد سلطان قرار السلطان العثمانى بعصيان عرابى ورفاقه إلى (العربان) بالإضافة إلى بعض المال ومنشور الخديوى نفسه وبعض مساعدات الإنجليز . الأمر الذى كان له أثره فى خيانة عرابى فى المعارك التى دخلها .

بل إنه قام مقام الخديوى نفسه عندما احتجزت أحداث الثورة العرابية الخديوى توفيق فى الإسكندرية . فأدار الأمر كما يريد الإنجليز وفى هذه الفترة فتح ديليسبس قناة السويس بعد أن ضمن لعرابى حياد القناة فتحولت ثورة الرجل الثائر عرابى إلى هوجة عرفت باسم (هوجة عرابى) !!

وحتى لا يظهر الأمر على حقيقته سميت نساء لجنة الوفد بأسماء ازواجهم السياسيون المشاهير ؟!

« ولأننا لا نسىء أو ننظر للأمر بلون واحد نذكر ما قاله د : (عبد العظيم رمضان) : فهو يقول بأن البرلمان الأول فى عصر توفيق (نوفمبر ١٩٨١) كان تحت رئاسة (محمد سلطان باشا) والد هدى شعراوى وهو الذى سمى ببرلمان (توفيق - عرابى) وأن حركة الجيش التى قام بها عرابى وزملاؤه بدأت بعيدة عن الحركة الوطنية التى قام بها الزعماء الدستوريون محمد سلطان باشا ومحمد شريف باشا وغيرهم التى كانت تستهدف إقامة حكم دستورى .

أما حركة الجيش فقامت لأسباب خاصة تتعلق بسوء أوضاع الضباط المصريين بالنسبو للضباط الشراكسة . وأنه عندما استعجل الخديوى وألقى القبض فى يناير ١٨٨١ على أحمد عرابى وزميليه : على فهمى وعبد العال حلمى وحبسهم فى ثكنات قصر النيل ، أسرع أفراد من الجيش وأطلقوا سراحهم وكانت الخطة أن يهرب عرابى ويختفى مع رفيقيه خوفًا من بطش الخديوى ، ولكن عرابى أظهر شجاعة نادرة إذ قرر أن يتجه لقصر عابدين بهذه القوة الصغيرة ليتحدى عباس رفقى وزير الحربية وقتها وفى فبراى ١٨٨١ قدم عرابى للخديوى طلب خاص بالجيش بتعيين سامى البارودى وزيرًا للحربية . وبالرغم من أن حادث قصر النيل لم يقصد منه التمرد على الخديوى ولا مواجهة النفوذ الأجنبى . فإنه كان له أثره على الرأى العام فأكسب الحادث عرابى شهرة باعتباره استطاع أن يتحدى حكومة رياض باشا ويرغمها على تغيير الوزراء الأمر الذى جعل القادة الدستوريون يسعون إلى الجيش وأخذت تعقد الاجتماعات للاتفاق على برنامج عملى سياسى وأخذ المسرح السياسى يستعد لمظاهرة عابدين يوم ٩ سبتمبر ١٨٨١ !! واتضح التنسيق فى أهداف عرابى التى قدمها للأمة فقد وضع الدستوريون مبادئهم فى مطلبين من أربعة لعرابى :

١ - إسقاط الوزارة المستبدة .

٢ - تشكيل مجلس نواب على النسق الأوربى وبغير هذا التنسيق لم يكن محمد شريف باشا ليختار لتأليف الوزارة الجديدة .

وإنه لا ينكر أحد أن (محمد سلطان باشا) فى ذلك الوقت وهو رئيس للبرلمان ، خرج حتى على الدستوريين حينما طلب شريف باشا ألا يكون لمجلس النواب حق مناقشة الميزانية وإقرارها وحينما قال شريف باشا : مناقشات البرلمان فى هذا ستعطى إنجلترا وفرنسا حق التدخل وقال له (محمد سلطان) ونحن لن نسمح لهم إلا أنه بسقوط وزارة شريف باشا . وظهور وزارة شبه عسكرية برئاسة محمود سامى البارودى فى فبراير ١٩٨٢ وفيها عرابى وزيرًا للحربية ظهرت العين الحمراء لفرنسا وإنجلترا فى مصر . ورغم ما يقرره د: عبد العظيم رمضان فإن المصريين لم ينسوا دخول الإنجليز على خيولهم ومعهم محمد سلطان باشا يرحب ويهش وينش !؟ ولم ينسى ذلك لا سعد زغلول ولا الشيخ محمد عبده » .

قبض الإنجليز على سعد زغلول يوم ٨ مارس ١٩١٩ وقامت الثورة فى اليوم التالى . ولكنها كانت فى إسبوعها الأول ثورة رجال فقط . واجتمعت فى بيت سعد زغلول : صفية زغلول وهدى شعراوى وحرم محمد محمود باشا . وقالت هدى شعراوى إنها كتبت برقية احتجاج باسم سيدات مصر إلى زوجة المندوب السامى البريطانى . وأن زوجها على شعراوى أخذ البرقيات وعرضها فى اجتماع الوفد وعادلها متهللاً : لقد اعجب الوفد ببرقيتك حتى اننا قررنا حفظها فى محضر الجلسة .

وقالت صفية : **البرقيات لا تكفى يجب ان تخرج المرأة المصرية إلى الشارع .**

فقالت زوجة محمد محمود : **إننى لم اضع قدمى فى الشارع منذ زواجى ولكننى موافقة على الخروج ولو ضربنى الإنجليز بالرصاص .**

وقالت هدى شعراوى : **إذن نحن فى حاجة لمظاهرات نسائية تهتف بسقوط الاحتلال ، ولو قتل الإنجليز منا واحده فسوف تلتهب مصر كله . اتركوا ذلك لى .**

إتصلت هدى شعراوى بزوجها على باشا تعرض عليه الفكرة فذهل ! كيف تخرج السيدات المحترمات إلى الشارع ! ولكنها استعملت طريقتها قائلة : إن صفية زغلول ترى ذلك وهى ترى أن هناك سلبية من الوفد فى معالجة أمر القبض على سعد زغلول ، زعيم الأمة فأعرض أمرها فى اجتماع الوفد الذى ترأسه باعتبارك رئيس الوفد بالنيابة . وعند عرض الأمر على اللجنة وقف عبد العزيز فهمى . ومن أخطرك بذلك يا شعراوى ؟! فقال الشعراوى : زوجتنا المصونة التى كانت فى زيارة لأم المصريين وكان معها حرم محمد محمود باشا ، فسأل عبد العزيز فهمى محمد محمود باشا : هل علمت بذلك من زوجتك ؟! فقال محمد محمود فهمى . لا . وأنى أسجل من الأن رفض الفكرة ، ولن تخرج زوجتى من منزلها ، ولن تزور أحد بعد اليوم وإذا بعبد العزيز فهمى ينظر شزراً للشعراوى ويقول : إنى أعجب أن سيدة عاقلة مثل صفية هانم تقترح مظاهرة النساء فى الشوارع ؟!

وضاق على شعراوى بما قاله عبد العزيز فهمى فمعنى ذلك أن زوجته صاحبة الفكرة وأنها المجنونة الوحيدة بين النساء الثلاثة فقال : ولماذا لا نسأل صفية زغلول ؟! ويقول عن ذلك مصطفى أمين فى كتابه « من واحد لعشرة » .

اتصلت هدى شعراوى بزوجها على شعراوى باشا تعرض عليه الفكرة فذهل ! كيف تخرج السيدات المحترمات إلى الشوارع !

وكان على شعراوى باشا رجلاً وقوراً فى السبعين من عمره ، يطلق لحيته ومن اهالى المنيا المحافظين المتمسكين بالتقاليد ، ولكنه كان اكبر بأربعين سنة من زوجته . وكان يحبها حباً يقرب من العبادة ، فلم يستطع أن يقاوم تصميمها على المظاهرة ، وخاصة بعد أن اخبرته بأن هذا راى صفية زغلول وحرم محمد محمود باشا ، فوعد بأن يعرض فكرة مظاهرة السيدات على اعضاء الوفد فى الاجتماع ويبلغها بالنتيجة.

وعقد الوفد اجتماعاً وما كاد يعرض على شعراوى باشا الفكرة حتى هاج وماج كل الأعضاء ورفضوا خروج النساء فى مظاهرة ، وكان من رأى الأغلبية أن هذا الفعل وقاحة وقلة حياء . وكان من رأى الأقلية انها مع تقديرها للوطنية التى املت هذه الفكرة الجريئة . إلا أن الأغلبية العظمى للشعب تستنكر خروج النساء إلى الشوارع ، وأن هذا سوف يقسم الراى العام فى مسألة فرعية ، بينما هو مجمع لأول مرة على مسألة واحدة هى مسألة الاستقلال ، فخروج النساء للشارع سيجعل البعض يعتبر الثورة خروج على الدين الإسلامى ، وبذلك تنفض أغلبية الشعب عن الثورة ..

وكانت الأغلبية التى تعتبر خروج المرأة إلى الشارع وقاحة وقلة حياء مؤلفة من : على باشا شعراوى نفسه ، وعبد العزيز فهمى ، ومحمد على علوبه وجورج بك خياط وحسين باشا واصف وعبد الخالق باشا مدكور ومحمود أبو النصر بك وعبد اللطيف المكباتى بك .

وكانت الأقلية التى رفضت رفضاً دبلوماسياً خشية انقسام الأمة من : أحمد لطفى السيد بك ومصطفى النحاس بك وسنوت حنا بك وعلى ماهر بك ودكتور حافظ عفيفى .

وذهب عبد العزيز فهمى للسيدة « صفية زغلول » ووجد منها إصراراً ، واعتبار منع ذلك تخاذل .

وأنهى عبد العزيز فهمى الحديث وهو يحاول جاهداً أن يمسك أعصابه ويقول:

– تأكدى أننى أحترم المرأة وأقدرها ..

فقالت له صفية ..

- لو كنت تحترم المرأة لما حاولت أن تحرمها من شرف الدفاع عن بلادها !

وأسرع عبد العزيز فهمى بك إلى زملائه وقال لهم أنه يخشى أن تكون صفية هانم قد جنت . وأن صدمة نفى زوجها ، أثرت على عقلها !

وسمع عبد الرحمن فهمى بما حدث فتطوع بأن يتولى إقناع صفية هانم نظراً للعلاقة الوثيقة بينه وبينها .. ولكن صفية انقضت عليه كما انقضت على عبد العزيز فهمى . وقالت له إن نساء مصر لسن أعضاء فى الوفد ولا توجد امرأة تمثلهن فى الوفد . ولهذا ليس من حق الوفد أن يصدر الأوامر إليهن !

وتحمست السيدات المصريات لتحدى قرار الوفد .. واجتمعت مئات السيدات فى بيت الأمة ، تولت هدى شعراوى الاتصال تليفونيًا بعدد من صديقاتها ، وراحت السيدة أستر فهمى ويصا وهدية بركات وعطية أبو أصبع وفكرية حسن وإحسان القوصى يتصلن بمعارفهن وصديقاتهن وقريباتهن للاشتراك فى مظاهرة حدد لها يوم ١٦ مارس .. بعد سبعة أيام من قيام الثورة .

واتفقت السيدات على أن يجتمع عدد منهن فى بيت الأمة ، وعدد ثان فى منزل أحمد بك أبو أصبع فى ميدان الإسماعيلية (ميدان التحرير الأن) ثم يتجمع الفريقان فى لحظة واحدة بحديقة جاردن سيتى ومن هناك تتحرك المظاهرة الكبرى ..

ولم ينم عبد الرحمن فهمى الليل ! إنه لم يستطع أن يفهم لماذا تريد أن تزج المرأة بنفسها فى السياسة ! لماذا تريد أن تفسد بتصرفها وقار الثورة ؟ وكان أكثر ما يزعجه موقف زوجة صديقه وزعيمه سعد زغلول . إنها هى التى تنادى بأن تخرج المرأة المصرية إلى الشارع . وفى الوقت نفسه عندما استقبلته ليناقشها فى هذا القرار لم تقابله وجهًا لوجه . بل إنها وقفت تحدثه من خلف الباب ! إنه لم يرها بل سمع صوتها فقط وراء الحاجز ! أى أنها حرصت على ألا تظهر بوجهها له فى غياب زوجها ، بينما كان يتناول معها الغذاء والعشاء وهى سافرة فى حضور سعد ، فإذا كان هذا هو مبلغ حرص صفية على التقاليد فما الذى جعلها تخرج عليها وتصر

على خروج النساء إلى الشارع متظاهرات ! وماذا يحدث لو أن الأزهريين أعتدوا على النساء المتظاهرات ! وماذا يحدث لو أن بعض الشبان تعرض لهن وألقى عليهن الكلام إياه !!

وفى ١٦ مارس ١٩١٩ عقدت نساء مصر اجتماعًا فى الكنيسة المرقصية وتم انتخاب اللجنة التنفيذية للنساء الوفديات برئاسة هدى شعراوى ونظموا مظاهرة ضد الاحتلال . وأعلنت هدى شعراوى أن شهيدات الثورة هن : شفيقة محمد (أول مصرية تسقط صريعة برصاص الإنجليز) وفهيمة رياض وعائشة وحميدة خليل عدا أخريات مجهولات .

وعندئذ فقط آمن عبد الرحمن فهمى بأن صفية وهدى على حق فى إصرارهما على اشتراك المرأة فى الثورة . وبطبيعة « عبد الرحمن فهمى » العسكرية أجبه التكتيك فقد كان الضابط الوحيد فى ثورة ١٩١٩ .

ورغم إلحاحه على حاجة الثورة إلى الضباط الوطنيين فإن سعد زغلول لم يوافق على ضم ضباط إلى القيادة !؟ .

فقد كان يرى مكان اجتماع النساء فى الكنيسة المرقصية فكرة عسكرية ضمنت سلامتهن وعدم التعرض لهن !؟ وسأل على شعراوى عن ذلك فقال له : استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان !؟ ولم يقل شيئًا .

فإن بعبد الرحمن فهمى بصورة تلقائية يقول : بل بالنسوان !؟

وسجلت هدى شعراوى (خروج المرأة المصرية لأول مرة) فى مذكراتها فقالت :

تشكلت لجنة مركزية كان لى شرف رياستها وعملت تلك اللجنة على تنظيم صفوف المرأة فى هذا الجهاد العظيم ، ولما قام الإنجليز يصبون نيرانهم على الثائرين - قررت اللجنة إعداد مظاهرة كبيرة تخرج فيها النساء رغم قيود الأحكام العرفية التى تحرم المظاهرات ، وتعرض القائمين بها لرصاص الجيش وإلى ما تبع ذلك من عقوبات السجن والتعذيب . هذا كله لم يثن من عزم نساء مصر . فطلبت لجنتنا من السلطة المختصة الإذن بهذه المظاهرة السلبية . فرفض طلبها ولكننا قررنا القيام بها حسب الخطة التى وضعناها وهى أن نبدأ السير من منتزه (قصر

الدوبارة) القريب من المفوضية الأمريكية لنقدم لها احتجاجنا أولاً ، وبينما كنت اتأهب لمغادرة منزلى فى ذلك اليوم للاشتراك فى المظاهرة بادرنى زوجى بالسؤال : إلى اين تذهبين والرصاص يدوى ويتساقط فى أنحاء المدينة ؟ فأجبته للقيام بالمظاهرة التى قررتها اللجنة . فأراد أن يمنعنى ، فقلت له : هل الوطنية مقصورة عليكم معشر الرجال فقط . وليس للنساء نصيب فيها ؟ .. فأجابنى : هل يرضيك إذا تحرش بكن الإنجليز . أن تفزع بعض النساء ويولون « يا لهوتى » .. فقلت له : إن النساء لسن أقل منكم شجاعة أيها الرجال ولا غيرة قومية ..

وتركته وانصرفت ولحقت بالسيدات اللاتى كن فى انتظارى وغادرنا عرباتنا وشكلنا أول مظاهرة نسائية منظمة نحمل فيها لافتات كتبت عليها عبارات وطنية وحمل بعضهن أعلام جميع الدول إلا علم إنجليز وسارت المظاهرة فى جلال قاصده المفوضية الأمريكية أولاً حسب البرنامج وكانت تقابل من الجمهور بالتصفيق وتنثر عليها الأزهار من نوافذ المنازل ، وعلمنا أنه أمام قنصلية فرنسا وقف جمهور من الفرنسيين معهم باقات الزهور استعداداً لتحيتنا ، وكان المقرر أن نمر بها وبباقى المفوضيات وتنتهى بيت سعد . ولكن للأسف عندما وصلت المقدمة إلى شارع سعد زغلول . دهشت إذا رأيت الموكب يتحول عن الخطة المرسومة قاصداً بيت سعد أولاً . فأرسلت إلى الدليلات أذكرهن بالاتجاه المتفق عليه ، فقلن إنه فى آخر وقت انفصلت بعض سيدات المقدمة على أن تبدأ المظاهرة من بيت سعد ولا أدرى إن كان هناك تدبير مبيت لذلك ؟ عندما وصلنا بيت سعد وجدنا أنفسنا محاصرات بالجيش البريطانى كأنه كان فى انتظارنا هناك . ولما أردنا اقتحام صفوفهم تحرش بنا الجنود ، وارتكز أحدهم وصوب بندقيته نحوى فتقدمت إليه . وإذا بإحدى صديقاتى تسحبنى من الخلف فقلت لها بصوت مسموع : أتركينى فإنى أريد أن تقع فى مصر اليوم مس كافيل أخرى .

ولكن الغريب أن عبد الرحمن فهمى عندما يسجل مذكراته فيما بعد يتجاهل شجاعة « هدى شعراوى » ويقرر بأن الذى قالت : « اتركينى فإننى أريد أن تقع فى مصر اليوم مس كافيل أخرى » وواجهت بنادق الإنجليز بشجاعة الفرسان إحدى

المتظاهرات[1] !؟ . وإن كانت (د . آمال السبكى) فى كتابها الحركة النسائية فى مصر تقرر بأن لديها تسجيل ذكرت فيه هدى شعراوى أنها قائلة تلك الكلمة وصاحبة هذا الموقف .

ويصف الرافعى مظاهرات ١٦ مارس ١٩١٩ فى كتابه (ثورة ١٩١٩ ص ١٢٠ القاهرة ١٩٤٧) :

لم تشأ المرأة المصرية أن تحجم عن المساهمة فى تلك الثورة التى اشتد لهيبها فأرادت أن تخطى بشرف هذا العمل المجيد حتى تبرهن للغاضب المحتل على أنها ليست أقل قوة وعزيمة عن اختها الغربية . وحتى تذكى نار الحماسة الوطنية فى قلوب الرجال .. ففى ١٦ مارس أنطلق كثيرات من عقائل العائلات الراقية يجبن أنحاء القاهرة هاتفات بحياة الحرية والاستقلال ، مناديات بسقوط الحماية . وقد مررن بموكبهن بدور القنصليات ومعتمدى الدول الأجنبية والناس من حولهن يصفقون لهن ويهتفون والنساء من نوافذ بيوتهن يزغردن ويهتفن فكان ذلك منظراً جميلاً رهيبا يأخذ بمجاميع القلوب . ولكن لم يكن للسلطة أن تترك مثل هذا الموكب الرائع دون أن تشوه من جلاله فضرب الجنود الإنجليز نطاقًا حولهن وسدود إليهن فوهات بنادقهن وحرابهن . على أن السيدات لم يرهبن هذا التهديد ، ولم يفت عضدهن مشهد أولئك الجند المسلحين بل تقدمت واحدة منهن إلى جندى كان قد وجه إليها بندقيته وقالت له بالإنجليزية : (أطلق بندقيتك فى صدرى لتجعلوا

(١) هذا الرأى يقول به أيضًا / ايمن نور (من حزب الوفد الجديد) ويرى أن هناك مظاهرتين للنساء بارزتين ومعاصرتين لثورة ١٩١٩ :

- الأولى : مظاهرة النساء فى ١٦ مارس ١٩١٩ وقادتها هدى شعراوى وهى شبه رسمية لنساء الوفد واقتصرت على « النساء الوفديات فى اللجنة التنفيذية للحزب » .

- الثانية : مظاهرة النساء فى ١٠ أبريل ١٩١٩ وقادتها امرأة لا تذكرها الأجيال ولا تعرف حياتها فى الحركة النسائية فى مصر هى : (شفيقة محمد عشماوى) وكانت أرملة من شياخة غباشى بالخليفة - قادت ثلثمائة سيدة إلى مقر المعتمد البريطانى تطالب باستقلال البلاد وتدافع عن قادة ثورة ١٩ فى المنفى (وهى صاحبة عبارة مس كافيل) وإن « شفيقة محمد » تعقبها جنود الإنجليز وقتلوها بالرصاص عند انصرافها وسط هتاف نساء مصر : تحيا الحرية ، فى ذمة الله يا شفيقة .

فى مصـر مس ڪافيل ثانيـة) فخجـل الجنـدى وتنحى للسـيدات عن الطريق بعد أن لبثن فى وهج الشمس أكثر من ساعتين .

فهل نقل عبد الرحمن فهمى عن الرافعى أما أنه كان لا ير فى نشاط المرأة السياسى فى الوفد فائدة وقد فجرته هدى شعراوى منذ بداية الحركة الوطنية الجديدة تحت قيادة سعد (نوفمبر ١٩١٨) ؟ على كل حال فقد استمرت انتقادات عبد الرحمن فهمى اللازعة لهذا النشاط .

فلقـد اعتـادت اللجنة المـركزية لسـيدات الـوفد أن تحتج ببـرقيـة على كل ما لا يروقها . وتنهى برقيتها بتوقيعات للسيدات المشاركات بالاسم ثلاثى بالطبع تبدأ التوقيعات برئيسة اللجنة (هدى شعراوى) . وكثرت هذه البرقيات وأصبحت تشغل جـزء من اجتماعات الوفد - وفى أحد المـرات قال عبد الرحمن فهمى أثناء الاجتماع : وأية أخبار اللجنة المركزية للبريد ! وكان يقصد بالطبع اللجنة المركزية لسيدات الوفد !! ولكن هدى شعراوى استمرت فى حركتها وحيويتها .

وفى ١٣ ديسمبر ١٩١٩ اجتمعت مع عدد كبير من نساء مصر فى اجتماع سمى « بالكاتدرائية المرقصـية » وأعلنت هـذه المرة عن مـغـزى التكتيك الذى يهتم به عبد الرحمن فهمى (لأن المكان له دلالته إذا لم يشعر المصريون باختلاف المذاهب الدينية بين مسلمين وأقباط) وناقشوا وكان احتجاجهن على :

١ - نفى الزعماء المنتخبين أبان الثورة .

٢ - المعاملة القاسية للشعب طوال الثورة .

٣ - لجنة ملنر .

٤ - الوزارة المعنية بمساعدة الإنجليز (وزارة وهبة باشا) .

٥ - رفض مطلب مصر بحضور مؤتمر الصلح وضرورة إعلان استقلال مصر .

وحينما علم سعد زغلول أعجب « بهدى شعراوى » وبمبادئها السابقة وأدهشه بأن ٧١ سيدة وقعن بيان ١٣ ديسمبر ١٩١٩ وبأسمائهن مباشرة فقد تخلت المرأة فيه عن كتابة توقيعها بـ حرم فلان العلان !! وسألها لماذا هتفن بالإنجليزية فى مظاهرة ١٦ يناير ١٩٢٠ ؟ فقـالت هدى شـعـراوى : ليـفـهم الإنجليـز إننا جـمـيـعًـا نـريد الاستقلال . الرجال والنساء . فقال لها : اهتفوا بالعربية وارفعوا علم مصر ، يجب ألا يعتقد المصريون أنكن نبت غريب .

وكتب عن ذلك عبد الرحمن فهمى فى مذكراته : قامت بعض السيدات المصريات بمظاهر لطيفة فى ميدان المحطة إلى لوكاندة شبرة . وهناك هتفن لسنيوت حنابك المقيم هناك وللوفد المصرى ورئيسه . وللاستقلال التام لجريدة مصر . ولما وقع نظر السيدات على بعض الضباط الإنجليز أخرجت كل واحدة علماً مصرياً صغيراً وصحن بأعلى أصواتهن تحيا مصر حرة مستقلة . الاستقلال التام أو الموت الزؤم . يحيا سعد باشا زغلول . يسقط ملنر . وكل هذه النداءات باللغة الإنجليزية .

على أن أهم ما فى الموقف هو أن عبد الرحمن فهمى يسجل فى تقرير له للوفد مؤرخ في ٢ مارس ١٩٢٠ أن لجنة السيدات التى ترأسها السيدة حرم شعراوى باشا تحتج على مشروعات رى السودان ، وغيرها . ونراه هو يقصد شعراوى باشا لا يهتم بمثل ذلك .

ولعل ذلك يفسر بداية تباعد (على شعراوى) عن زعيم الحركة الوطنية (سعد زغلول) ذلك الموقف الذى تبلور عام ١٩٢٢ فى تأييد الشعراوى للانشقاق الكبير الذى عرف بحزب الأحرار الدستوريين . فقد عانى الرجل من وجوده وزوجته هدى شعراوى فى حزب واحد .

ثم أنهكه الوفد .. أخذوا ثروته فهو أغنى رجل فى الصعيد . وكلما عبر عن رؤية مختلفة اتهموه بأنه رجعى التفكير ومتعصب ضد الأقباط .

أما هدى شعراوى فقد بدأت تمارس نشاطات خاصة :

دعت لجمع تبرعات لإنشاء جمعية لرعاية الطفل وتحمس الناس للدعوة وتم جمع التبرعات لكن الحكومة أوقفت المشروع . وكانت النظارة فى ذلك الوقت تحت رئاسة (الحضرة الفخيمة الخديوية) عباس حلمى وسنة ١٩٠٨ بدأت الدعوة لمحاضرات ثقافية على السيدات فى قاعة من قاعات الجامعة الأهلية ووافق . الأمير أحمد فؤاد ، على تخصيص قاعة لمحاضرات السيدات يوم الجمعة من كل أسبوع . وسنة ١٩١٠ اتفقت « هدى شعراوى » مع الأميرة ، « عين الحياة » وعددمن الأميرات والسيدات على إنشاء (مبرة محمد على) لعلاج الأطفال . وعلى إنشاء

مدرسة للبنات . وفى مايو عام ١٩١٤ أسست « هدى شعراوى » بمعاونة الأميرتين « عين الحياة » و « أمينة حليم » جمعيتى (الرقى الأدبى للسيدات والمرأة الجديدة) وقد توقف نشاط هذه الجمعيات أثناء الحرب العالمية الأولى .

ثم تحولت متحمسة مستقلة للوفد منذ ١٩١٦ . ثم بدأت مترددة فى علاقتها بالوفد من بداية عام ١٩٢٢ فهى لا ترى أنها حققت نصرًا سياسيًا للمرأة من خلال الوفد وفى نفس الوقت لا تستطيع أن تنكر حماس ورعاية سعد زغلول لحركة تحرير المرأة . وفى مارس ١٩٣٢ وفى يوم ١٦ ذكرى مظاهرة ١٦ مارس ١٩١٩ أصبحت هدى شعراوى جبهة مستقلة بتكوين الاتحاد النسائى المصرى الذى استطاع أن يضم بالفعل عناصر من لجنة الوفد المركزية للسيدات .

فقد أحست المرأة فى قرارة نفسها ومنذ بداية الإفراج عنها والأخذ بيدها نحو الخروج الكبير من قفص الحريم - أن الرجل هو صاحب الفضل - وبالتالى فهو لن يتركها لترسم لحياتها باقى المعالم خارج الحرملك . لن يسمح لها أبدًا أن تتخطى الدور الذى رسمه لها .

تبلور هذا الإحساس رويدًا رويدًا منذ أن علمت بموقف رجال الوفد الذى رفضوا الاعتراف بها فى بداية الأمر ، وباللجنة المركزية التي رأستها ان ذاك هدى شعراوي ، وعلى الفور رأت اتخاذ بعض المواقف التى من شأنها توصيل هذا الإحساس للرجل ، ومن ثم رفضت بشدة أن تكون مجرد بديل للرجل أو مقلده له ولسياسته ، بل أكثر من ذلك عبرت عن هذا الرفض بشكل واضح وصريح حين أصرت عضوات اللجنة المركزية لنساء الوفد أن يكن عضوات كاملات العضوية ، وأن يكون لهن الحرية فى التعبير ، رافضات الطاعة العمياء للرجال ، لمجرد تحقيق الإجماع فى الآراء خلال الأزمات .

وتجلى هذا الرفض أكثر ، حين انتقدت المرأة شروط الاستقلال التى وافق عليها من قبل رجال الوفد ! .

إن الإحساس بضرورة الاعتماد على النفس ، بعيدًا عن إرادة الرجل ، قد تجلى أيضًا وبصورة مثيرة - فى قرار نساء مصر بضرورة إنشاء اتحاد نسائى للمرأة المصرية .

واقتنعت هدى شعراوى أن قضية المرأة .. قضيتها وقضية مصر وأن سعد زغلول بما أعطاها من تأييد . قد كسب بها خطوة للأمام ولكن الوفد كسب بها عدة خطوات فى طريقه السياسى ولكنها اقتنعت أيضًا بأنها لن تحقق نصر سياسى للمراة عن طريق الأحزاب . بل إنها أمنت بأن كل التحركات الجيدة والتى سمح بها (للجنة نساء الوفد) كانت فى فترات نفى سعد زغلول حينما كانت صفية زغلول تتولى الأمر .

ولم يكن اقتناع هدى شعراوي بذلك نابع من طرحها أى قضية لها علاقة بالمرأة ، وإنما نابع من التجاهل الذى رأته فى قضية السودان التى تبنتها داخل الوفد - كقضية سياسية وتؤيد هذا الرأى « أمال السبكى فى كتابها » (الحركة النسائية فى مصر ما بين الثورتين ١٩، ٥٢) .

ارسلت هدى شعراوى الاحتجاجات السابقة وظلت تعمل فى لجنة نساء الوفد إلى أن اختلفت مع سعد باشا بعد عودته من المنفى نظراً لموافقته على البند الخاص بالسودان الذى رمى إلى مناداة الملك فؤاد بملك مصر دون السودان فى البيان الذى القاه توفيق نسيم باشا عند توليه الوزارة فما كان من سعد باشا إلا أن ارسل يهنئه على بيانه . ولم يتطرق مطلقا إلى هذا التجاهل . فثارت هدى شعراوى ولم يعبأ سعد باشا بثورتها بل إنه عندما اجتمع بالوفديين فى الاحتفال السنوى للوفد فى ١٣ نوفمبر ١٩٢٢ ، لم يدعوها لحضور الاحتفال رغم أن العادة جرت على حضورها .

ولجنة الوفد المركزية للسيدات منذ ثورة ١٩١٩ . وفى الوقت الذى أصدر بيانًا عن الاحتفال يشكر فيه كل الوفديين على موقفهم أثناء وجوده بالمنفى . **فما كان من هدى شعراوى إلا ان ارسلت رسالة إليه شخصياً تخطره فيها بالرغبة فى عدم العمل معه فى اللجنة السابقة كما قدمت استقالتها .**

فقد كانت هدى شعراوى أصدرت من خلال لجنة الوفد المركزية للسيدات فى ٢٦ يناير ١٩٢٠ اعتراضها على ما تمخضت عنه المفاوضات فى مشروع رى السودان ورفضت ذلك لثلاث نقاط :

أولاً : لأن الإنجليز هم الذين وضعوه باعتبارهم أصحاب الشأن فى السودان مع أن مركز انجلترا هناك غير شرعى ، ولا يختلف فى بطلانه عن مركزها فى مصر فإن كليهما قطر واحد لا يقبل التجزئة وحقهما فى الاستقلال لا يمكن إنكاره .

ثانيًا : لأن هذا المشروع ثبت ضرره بدليل ما نشره الأخصائيون من كبار المهندسين المصريين والإنجليز .

ثالثًا : لأن البت فى مثل هذه المشروعات من اختصاص المجلس النيابى الذى يمثل مصر والسودان معًا .

على العموم طورت هدى شعراوى خطواتها فدمجت جمعيتى (الرقى الأدبى للسيدات المصريات وجمعية المرأة الجديدة) فى جمعية واحدة هى المرأة الجديدة تحت رعاية شرفيه للأميرة « أمينة حليم » وجعلت مجلس الإدارة برئاسة حرم محمود صدقى أما أمانة الصندوق فأسندته إلى فهيمة ثابت وكان ذلك فى ٢٢ أبريل ١٩٢٠ .

أما اللجنة المركزية للسيدات فقد تركتها لوكيلتها شريفة فاضل التى لم تقم بأى عمل سياسى فى اللجنة بل إنها انضمت لاحقًا إلى الاتحاد النسائى الذى أنشأته هدى شعراوى .

وركزت نشاطها على إلقاء المحاضرات فى الفنون والآداب وأقامت الحفلات الموسيقية لأشهر العازفين وسمحت بالغناء والتمثيل فى بيتها وركزت نشاطها فى الصحة والعناية بالأطفال ووجهت المرأة إلى فنون الإدارة المنزلية .

ومن المعروف تاريخيًا أن بعد فشل مفاوضات (عدلى - كيرزن) ١٩٢١ التى كانت بين الحكومة المصرية والإنجليز عاد عدلى يكن وقدم استقالته - وعادت الثورة من جديد وامتنع الساسة من المصريين عن تشكيل الحكومة وألقت انجلترا القبض على سعد وزعماء الوفد وتوسعت انجلترا فى القبض حتى وصلت إلى القيادة

الخاصة فى الوفد . ثم نفى سعد زغلول وبعض زملاؤه للمرة الثانية إلى جزيرة سيشل .

وفى هذه الفترة ظهرت المرأة المصرية فى ثورة بيضاء سلمية قائمة على المقاطعة لكل ما هو إنجليزى (البضائع - السفن - البنوك) وبالطبع قامت اللجنة المركزية لنساء الوفد بدور كبير فيها تحت رئاسة هدى شعراوى .

وكان إقبال الشعب على المقاطعة رائعًا .. وبدأت تفلس أكبر المحلات التجارية البريطانية فى القاهرة . أفلس محل « ستاين » ثم محلات « مورنج » وأحدًا أثر واحد .. وبدأت البنوك البريطانية تغلق فروعها . ثم تغلق أبوابها . خرج الناس ينفذون المقاطعة بإرادة غريبة . كانت بعض المحال التجارية البريطانية تخفض أسعارها إلى النصف لتغرى الفقراء ومتوسطى الحال بالخروج على قرار المقاطعة وصمد المصريون للإغراء ، فضلوا أن يشتروا البضائع غير البريطانية الغالية على البضائع البريطانية الرخيصة . طلب الوفد من الشعب أن يسحب أمواله من البنوك البريطانية ويودعها فى بنك مصر ، وفى يوم وليلة خرجت الملايين من الخزائن البريطانية ودخلت بنك مصر . نشطت الصناعات المصرية أصبح كل مصرى يتباها بأنه يرتدى حرير اللوزى أو قماشًا من صنع المحلة .

أصبح محل تجارة حامد المواردى فى العتبة أعظم محل تجارى فى القاهرة . كبر فجأة وتغلب على شيكوريل وشملا والبون مارشيه وأورزدى باك . فشلت كل محاولات لورد اللنبى والحكومة لإفساد المقاطعة . ويصاب الإنجليز فى مصر بانهيار ويلحون على لورد اللنبى بضرورة التسليم للثوار ويبرق اللورد إلى حكومته فى ذعر « إن الثورة تزداد اندلاعًا . هذا الموقف الخطير لا يمكن أن يستمر . إما أن نضم مصر العنيفة العداء للإمبراطورية وإما نستسلم استسلامًا تامًا ! ».

وعبثًا حاول الإنجليز أن يعرفوا أين تطبع منشورات المقاطعة ، ولم يتصوروا أن نساء مصر هن اللاتى يتولين هذه الحرب الخفية .. ولم يتصوروا أن مقابلات السيدات فى بيوت مختلفة فى الصالونات هى اجتماعات سرية توضع فيها خطط المقاطعة .

إلا أنه فى عام ١٩٢٢ حدث ما لم تتوقعه هدى شعراوى !؟ فقد حضرت صحفية أمريكية تدعى « جريس تومسون » لترى نساء مصر بعد أن أصبح تعلقهم ومظاهراتهم مع الوفد محل نظر الدنيا وكتبت كتاباً اسمه (الزغلوليات) آى نساء ثورة مصر زغلول . والتقت فى ذلك الوقت بالسية صفية زغلول والملكة نازلى .

وإذا ببعض السيدات تخطر هدى شعراوى بأن صفية زغلول لم تذكر عنها شيئاً رغم تحدثها باستفاضة عن غيرها من نساء الوفد ، وأنها تنسب فكرة المقاطعة لنفسها .

وفى لحظة غضب أعلنت هدى شعراوى السر : لقد اجتمعنا فى منزلى وبعيداً عن لجنة سيدات الوفد سبع عشر سيدة برئاستى وطرحت فكرة المقاطعة وانتخبنا عزيزة فوزى والسيدة جميلة عطية والأنسة سيزا نبراوي سكرتيرتى ووضعت خطة للمقاطعة بنفسى من عدة بنوة :

أولاً : رفع احتجاج الجمعية على سياسة إنجلترا نحو مصر والسودان إلى مندوب هذه الدولة بمصر وإلى وزارة خارجيتها بلندن وتبليغ ذلك للحكومة المصرية.

ثانياً : العمل على انتخاب لجان فرعية فى المدن والمحافظات لترويج هذه الدعوة .

ثالثاً : نشر نداء للشعب تستحثه على تأييد مبدأ المقاطعة والعمل على تنفيذها .

رابعاً : نشر نداء للتجار وأرباب الصناعات تستحلفهم بحق الوطن عليهم ، ألا يستوردوا بضائع جديدة أو آلات صناعية من انجلترا .

خامساً : أن تعقد جلسات اللجنة كل اسبوع يوم الجمعة بعد الظهر بمنزل الرئيسة إلا إذا طرأت ظروف مستعجلة . وقالت عبارة رنانة ...

: ولم يكن المشروع إلا هودج ركبته ام المصريين !! وكتبت سيزا نبراوى فى مذكراتها : أن المقاطعة كانت بدايات أعمال الاتحاد النسائى فى ذلك الوقت اما تاريخ ١٦ مارس ١٩٢٣ فهو تاريخ التأسيس بعد الإجراءات الإدارية .

وإذا كانت صفية زغلول اعتبرت حرم بهى الدين بركات باشا (أركان حرب المقاطعة) فالحقيقة أن هدى شعراوي (فيلسوفة المقاطعة وصاحبة الاقتراح) وظهر كتاب « جريس تومسون » لأول مرة مترجمًا للعربية عام ١٩٧٠ كشف عنه النقاب « محمود عوده » وجاء فيه :

« لقد دهشت أن الشرقيات كما يصورهن خيالنا الغربى المريض قد انقرض والحوريات المضطجعات فى استرخاء يعرضن فتنتهن على أرائك ناعمة من الحرير وحولهن الجوارى يعزفن العود لم تعد توجد إلا فى كتب الأساطير ، لقد وجدت مدام زغلول وهى سيدة تبدو للناظر من الوهلة الأولى ذات شخصية قوية وذات كبرياء ووداعة ، فلقد أعتقل زوجها زغلول للمرة الثانية إلى جزيرة سيشل فى ٢٢ ديسمبر ١٩٢١ بعدما رفض أن يعتكف فى عزبته ، وشهدت صفية هانم اعتقاله وظلت هادئة ساكنة حتى غادر زوجها البيت . وكما قالت لها : أن سعد سجين سيشل ولكننى هنا روحه الثانية وزوجته التى تصون مكانه .

كذلك ردت بعنف وبثقة على المندوب السامى عندما عرض عليها مكانية مصاحبتها لزوجها بسيشل حيث قالت : إنني سأظل فى القاهرة وسأعمل كل ما فى وسعى لأنه عمل زوجى وأنتم تستطيعون أن تنفوا جسمان سعد ولكنكم لن تستطيعوا أن تنفوا روحه لأنها تعيش وستظل تعيش ، وفى بيته سأكون سعدًا متى يعود . وهو سيعود لأن الشعب لن يرضى بغيابه ، ولن يمكنكم من إبعاده طويلاً . وحتى لو مات سعد فسيأتى كثيرون غيره وسيتقدمون الصفوف وسأفعل كل ما أستطيع لإشعال روح الثورة فى سبيل استقلال مصر ..

كما أعدت صفية زغلول ولجنة الوفد للنساء منشورًا وزع في كل انحاء البلاد بعنوان « نداء حرم الرئيس » قالت فيه : لئن كان سعد شيخًا فثقوا أن هذا النفى لا يهد من عزيمته إلا شيء واحد هو أن يعلم يومًا أنكم اعتراكم الضعف ولو للحظة واحدة » .

وبدأت عقيلة الرئيس وزعماء الوفد فى المنفى وزعماء الصف الثانى فى السجون صفحة كفاح مجيدة لسيدات مصر وقد بدأ احتجاجهن يأخذ شكله العملى

بتنظيم مقاطعة البضائع البريطانية . وانضم إلى السيدات عدد كبير من سيدات المرأة الجديدة . وجمعية محمد على الارستقراطية للكفاح من أجل استقلال حقيقى للبلاد .

ولم تكن صفية هانم فى الحقيقة سوى أم لكل المصريين ، ولهذا لقبت « بأم المصريين » فكانت الزعيمة الروحية للنساء والرجال خاصة من عينة زوجها ، وكانت الرئاسة الفعلية للجنة السيدات فى يد سيدة مصرية ثانية عظيمة ، هى السيدة « هدى شعراوى » وكانت سيدة هادئة رزينة وزعيمة وقائدة بكل معنى الكلمة وهى تحمل فى وجهها شخصيتها تلك القوة الصافية المتدفقة التى تحسها أمام النيل ونهر مصر العظيم ووراء مظهرها المهذب الشامخ يحس الإنسان أيضًا أن هناك عقلاً مرتبًا ، وإرادة صلبة .

ولم تسمع هدى شعراوى شهادة تقديرها الحقيقية ، وتركت نفسها لأوهامها التى صنعت الجفاء بينها وبين الوفد والمقاطعة الحريمى بينها وبين صفية زغلول .

وقد تطورت أحاسيها المبالغ فيها حتى أنها اعتقدت بأن صفية زغلول هى التى أوعزت إلى سعد زغلول بالعناية (بمنيرة ثابت) لتحل محلها فى الوفد بعد ما أظهرته أختها فهيمة ثابت من وطنية بسفرها معها كوصيفة عند مرض سعد زغلول فى المنفى !!

ولكن على الشعراوى ما أن استراح لاستقالة زوجته من الوفد حتى فوجىء بقصره يتحول إلى ملهاة ثقافية - غناء - وتمثيل واجتماعات و..... و... لقد أرخت هدى شعراوى العنان وتركت نفسها لنشاط فنى وبدأت تهيم بالموسيقى التى تعلمتها فى الصغر وتركتها وراءها .. كانت لا تستطيع أن تفر من ذلك وقد أصبح يشرف على جمعيتها (المرأة الجديدة) الهوانم السيام اللاتى دخلن فى ركاب الأميرة الطيبة المهذبة (أمينة حيلم) التى وضعت جزء من ثروتها لهذا النشاط .

وفجأة تفجرت قنبلة اسمها (فاطمة سرى) .. قيل أنها تزوجت عرفيًا من (محمد شعراوى) ابن هدى هانم شعراوى بورقة سرية فى ١ سبتمبر ١٩٢٤ !! ولم تكن فاطمة سوى مطرية أعتادت هدى شعراوى أن تجعلها تحى حفلات

جمعيتها (المرأة الجديدة) وذلك لحسن حظها وذوقها الرفيع فى الملابس فقد قال لها يوسف وهبى : فاطمة سرى فتاة مستقيمة من المسرح للبيت ومن البيت للمسرح - إنها بنت ناس !! وكان غريبًا أن تشق هدى شعراوى فى يوسف وهبى دون جوان الفن !؟

وجاء ذلك فى وقت ظهور الاتحاد النسائى المصرى ككيان سياسى تحت رئاستها وتضمن برنامج الاتحاد النسائى مطالب شاملة فقد طالب باستقلال مصر والسودان وحياد قناة السويس حتى لا تستخدم فى الحروب وضد مصالح مصر ، كما يوكل لمصر حق الدفاع عنها ورفض تحمل ديون تركيا القديمة ، وطالب بإلغاء الامتيازات الأجنبية ، كما نادى بوضع قاعدة للمفاوضات مع بريطانيا ثم طالب بإدخال تغيرات على دستور مصر أهمها وضع الديمقراطية السياسية موضع التنفيذ بأن تمنح المرأة حق الانتخاب وبإلغاء القوانين الاستثنائية والرجعية وقانون التضمينات وكذلك الاهتمام بتحسين الجيش المصرى لأنه أهم وسيلة للدفاع عن الوطن الحبيب والسعى لتطوير كافة وسائل المواصلات السلكية واللاسلكية .

هذا فى المجال السياسى ، أما المجال الاجتماعى فقد دعى إلى نشر التعليم الابتدائى بصفة إلزامية وطالب بالإكثار من البعثات العلمية وفتح باب التعليم الثانوى والعالى أمام الجنسين ودون التقيد بسمة معينة مع تعليم الطلاب الصحة العامة والقانون والموسيقى لتهذيب النفوس وزيادة الوعى والحث على استكمال الجامعة المصرية وتشجيع حركة الترجمة لما لها من أثر بارع فى نقل نفائس الكتب وأمهات المعرفة ، وطالب بتطوير الصناعة وفتح باب الأسواق أمامها وحمايتها من المنافسة الأجنبية وتشجيعها أمام المصريين خاصة بكافة الوسائل . وأخيرًا محاربة المسكرات والمخدرات .

أما ما يخص الجانب النسائى . ففى مجال التعليم المطالبة بجعل الوظائف الإشرافية للمرأة والمطالبة بحقوقها المهضومة وقانون الانتخاب والسعى لحل المشاكل الأسرية بطريقة عادلة تضمن للمرأة حريتها وإنسانيتها ، وضع قانون يمنع تعدد الزوجات والمطالبة بجعل الطلاق أمام القاضى ، إلزام المطلق بالنفقة ، وزيادة سن الحضانة للأطفال وغيرها من القوانين فى مجال الأحوال الشخصية .

واستطاع اتحاد هدى شعراوى أن يجذب إليه أنشطة الجمعيات الأخرى وخاصة بعد رحيل سعد زغلول الذى قدم السند الأدبى الكبير لحركة المرأة المصرية.

وفى مارس ١٩٢٣ ظهرت هدى شعراوى فى المؤتمر النسائى بروما ممثلة للمرأة المصرية حيث ألقت كلمة عن أوضاع المرأة فى مصر ، فرقت فيها بين أصول الدين وما كفله للمرأة من حقوق وبين الأوضاع الاجتماعية السائدة التى تكرس الوضع الدونى للمرأة . وانضم الاتحاد النسائى المصرى للاتحاد النسائى الدولى على أساس المطالبة بحقوق المرأة السياسية والمدنية والعمل على نشر مبادئ السلام .

وفى عام ١٩٢٤ اجتمعت نساء الوفد مع جمعية الاتحاد النسائى المصرى وأصدرن كتيبًا يشمل تصورًا شاملاً وعامًا به قسم سياسى عن موقفهن من القضية المصرية وقسم عن تعديل الدستور وقسم آخر عن الأوضاع الاجتماعية كما ضم الكتيب قسمًا نسويًا يطالب بحقوق المرأة مثل المساواة فى التعليم ، وزيادة مدارس البنات الثانوية ، وفصل إدارة تعليم البنات عن تعليم البنين ، وإحلال خبيرات من النساء محل الرجال فى فروع التعليم النسوى ، واشتراك النساء فى حق الانتخاب وإصلاح قانون الأسرة بسن قانون يجعل تعدد الزوجات للضرورة فقط ، وأن يكون تطليق المرأة أمام القاضى الشرعى ، وقد أرسل هذا الكتيب والذى يكاد يضم برنامجًا كاملاً لحزب سياسى نسائى إلى رئيس مجلس الشيوخ والنواب ،والصحافة وعدد كبير من المواطنين والمواطنات .

وعادت هدى شعراوى لقصرها سعيدة قريرة العين ليفاجأها زوجها بما تنشره الصحف ووقفت هدى شعراوي مزعورة مما كتب من قلم جوعان وقلم غلبان وقلم كرباج وقلم هلفوت وقلم حوت وقلم ملطوط .. فما الذى تنشره مجلة (فتاة النيل) و (الصباح) ولكن ما أدهشها صورها .. وهى تمثل سافرة مندمجة فى الدور !! وغاص على شعراوى فى مقعده حينما قالت هدى : هذه الصور ، حقيقية ولكن كيف خرجت من البيت !؟

وعرف على شعراوى أن زوجته (سبع صنايع) - اكتشف أنها شاعرة وكاتبة وأنها تحسن التمثيل كما تحسن العزف على البيانو ! واكتشف أن فى منزله معمل صغير لصناعة العطور تبتكر بداخله أصنافًا جديدة تهديها هدى هانم لصديقاتها .

وبالتحرى وجد فى حديقة قصره استديو خاص تحمض فيه الصور وتكبر اللقطات - وأن زوجته كونت فرقة من الصديقات تقوم فيها بدور المخرج ومهندس الديكور وأن الممثل الوحيد فيها من الجنس الخشن هو نجله (محمد بك شعراوى) .

أما الرجل الذى وجده فى الصورة المنشورة لزوجته هى سيزا نبراوى وقد اندمجت مع هدى شعراوى فى دور روميو العاشق الولهان بعد أن تنكرت ولبست ملابس الرجال !؟ وحطم على شعراوى استوديو التصوير وقرر أن يغلق باب القصر بسلسلة وقفل !! ولكن الرجل وجد طلاب صينيين على باب القصر وسأل فى ثورة : آيه دول كمان !؟ وعرف أن زوجته تعطف على هؤلاء الطلاب الذين يدرسون فى الأزهر وأنها قد جعلت لكل منهم مكافأة شهرية .

وفتح الباب وكسر القفل ولكن هدى لم تخرج وأهتدت إلى أهمية الصحافة وجلست لتعد لمشروع إصدار جريدة مصرية بعيدة عن الإسفاف والحياة الشخصية وأصدرت بالفرنسية التى تجيدها « الأجيبسيان » وأسندت رئاسة تحريرها إلى السيدة سيزا نبراوى . مرافقتها الدائمة وسكرتيرتها الخاصة .

وكان مقالها الأول عن لماذا لم يحقق سعد زغلول وعده بدخول المراة البرلمان واشتراكها فى الحياة السياسية وكان سعد زغلول وقتها يقود الوزارة !!

وإذا بعض الصحف ترد عليها بمقال : لماذا لا يتزوج الأبناء على سنة الله ورسوله !؟ ووجدت أن موضوع ابنها مع فاطمة سرى قد تطور فأرسلت على بك سعد الدين لها بألف جنيه فقالت له هذا لا يرضى الله !؟ وأعتقدت هدى أنها تطمع فى المزيد فأرسلت المحامى الهلباوى بك بأربعة آلاف جنيه فألقتها فاطمة سرى فى وجهه وقالت له إنت محامى أم قواد !؟

وإذا بفاطمة سرى تعلن أنها حامل من ابن هدى هانم . وبدأت حركة نسائية كبيرة استعملت فيها الملاية والحيانى والطماطم والبيض الفاسد . بينما كانت معركة (هدى - فاطمة) دائرة إذا بخطاب يصل من باريس يطالب الاتحاد النسائى المصرى بالمشاركة فى المؤتمر النسائى الدولى العاشر عام ١٩٢٦ وتحصل هدى

شعراوى على تأييدات عربية من النساء لتكون ممثلة عن مصر ونساء العرب (العراق - سوريا - فلسطين - لبنان - شرق الأردن) لتعود من هذا المؤتمر وقد فكرت فى الاتحاد النسائى العربى فقد هالها الموضوعات المعروضة فى مؤتمر باريس والتى كانت تسمع عنها لأول مرة : الأم غير الزوجة ، جنسية الزوجة ، منع تجارة الرقيق ، دور المرأة فى السلام العام ، بينما كانت فى جعبتها موضوعات : فوضى الطلاق ، بيت الطاعة ، وضع حد لتعدد الزوجات .

وحينما عادت من المؤتمر وجدت نفسها قد حصلت على نيشان الكمال من لبنان . وأصبحت منذ ذلك الوقت رئيسة للاتحاد النسائى العربى .

(واستمر هذا الاتحاد حتى بعد وفاة هدى شعراوى وفى سنة ١٩٥٦ تولت رئاسته د. سهير القلماوى واستمرت رئيسته حتى ٧٩ وعلقت عضوية مصر فيه . وألغى الاتحاد النسائى المصرى . وقالت عنه د. سهير القلماوى أنه اتحاد من ١٦ دولة عربية يحاول أن يعمل للتعارف بين البلاد العربية بأنشطة نسائية ولكنه فى الحقيقة ليس له تأثير سياسى أو إلزام دولى) .

وفكرت هدى شعراوى فى أهمية إصدار مجلتها « المصرية » باللغة العربية . حتى تستطيع أن تكون بمثابة منبر ليس للاتحاد النسائى المصرى ،ولكن الاتحاد النسائى العربى وعرضت رئاسة التحرير على د. سهير القلماوى (الأنسة سهير القلماوى وقتها) وتقول عن ذلك : بدأت فى الإعداد ولكنى فوجئت بأن هدى شعراوى تريدها ترجمة لمجلتها الفرنسية فرفضت ولم أجد ديمقراطية فى هدى شعراوى . وشعرت بأنه اتحاد هدى وهوانمها وليس اتحاد للمرأة !!

ومنذ عام ١٩٢٦ وماتلاها ظهرت علامة غريبة بين الاتحاد النسائى المصرى والحركة النسائية فى أمريكا وبدأت مجموعة من الزيارات لهدى شعراوى إلى أمريكا (حتى الأن لم يكشف عن تلك العلاقة ومداها ، ولم أجد شيئًا بخصوصها في المراجع) إلى أنه اتبع ذلك زيادة نفقتها على تعليم الفتيات فى مصر والخارج حتى أن المثال مختار اسمها (إيزيس) .

بعد عقد معاهدة ٣٦ لم تتفق هدى شعراوى مع النحاس باشا وظل هجومها مستمرًا عليه – ولم يأخذ الرجل الأمر بجدية وإنما حكى حكاية عن فاطمة(١) سرى وكيف قابلها فى النمسا حينما هربت لتضع مولودها (ليلى) الذى حملت به من محمد على الشعراوى ابن هدى شعراوى وأثبتت الولادة فى القنصلية المصرية فى فيينا وكيف أنه وقف معها ، لأنه يقف مع الحق .. وعرف أنها واقعة تحت تهديد فنصحها أن تذهب إلى محل زنكوغراف وتحصل على صورة مطابقة للإقرار وعندما تيأس من المقاومة تسلم صورة الإقرار وتحتفظ بالأصل . وأن أم محمد (يقصد هدى شعراوى) لم نغفر لها ذلك !! واستعمل عبارة قلبها أسود !!

(١) وأعلن الصراع بين المطربة والزعيمة ولكن الغريبة تبادل الأسلحة ، المطربة تستخدم المبادىء التى تنادى بها هدى شعراوى وهدى شعراوى تستخدم أسلحة المغنواتية « نعم .. يا عمر .. وهات يا ردح » ..

أنا اسمى فاطمة سرى ولم أغير اسمى لفاطمة شعراوى كما فعلت حماتى « اسمها نور الهدى سلطان » وتزوجت على باشا شعراوى فأصبح اسمها هدى شعراوى !!

إذا كانت تدعى أنى لا أحب محمد شعراوي .. فلتقل لى هل كانت تحب هى على باشا شعراوى الذى تزوج قبلها ، وكان فرق السن بينهما ٤٠ سنة !!

إذا لم أكن ربيت .. فأنت لم تحسنى تربية ابنك .. لقد خطفنى فى سيارة وأنت تعلمين !!

وقالت هدى شعراوى :

القذرة .. بتاعة مين .. ومين إنها لها ملف فى الآداب .

وكتبت فاطمة سرى خطابًا إلى هدى شعراوى أما نصه فقد نشره مصطفى أمين فى كتابه (من واحد لعشرة) وأعاد نشره عدة مرات .

سيدتى :

« سلامًا وبعد . أنا اعتقادى بك وبعد لك ، ودفاعك عن حق المرأة يدفعنى كل ذلك إلى التقدم إليك طالبة الإنصاف ، وبذلك تقدمين للعالم برهانًا على صدق دفاعك عن حق المرأة ، ويمكنك حقيقة أن تسيرى على رأس النساء مطالبة بحقوقهن ، ولو كان الأمر مقصورًا علىَّ لما احرجت مركزك ، إنك أم تخافين على ولدك العزيز أن تلعب به أيدى النساء ، وتخافين على مستقبله من عشرتهن ، وعلى سمعته من أن يقال أنه متزوج امرأة كانت فيما مضى من الزمان تغنى على المسارح ، ولك حق أن عجزت عن تقديم ذلك البرهان الصارم على نفسك ، لأنه يصيب من عظمتك وجاهك وشرف عائلتك كما تظنون يا معشر الأغنياء ، ولكن طفلة =

= مسكينة هى ابنتى وحفيدتك ، ابنة نجلك العزيز ، والله يعلم ، وهو يعلم ، ومن يلقى عليها نظرة ، واحدة يعلم ويتحقق من انها لم تدنس ولادتها بدم آخر ، والله شهيد ، وطالبت بحق هذه الطفلة المعترف بها ابنك كتابيًا ، قبل أن يتحول عنى وينكرها وينكرنى ، فلم أجد من يسمع لندائى وما مطالبتى بحق وحقى كزوجة طامعة في مالكم ، كلا ! والله فقد عشت قبل معرفتى بابنك ، كنت منزهة محبوبة كممثلة تكسب كثيرًا ، وربما أكثر مما كان يعطيه لى ابنك ، وكنت متمتعة بالحرية المطلقة وأنت أدرى بلذة الحرية المطلقة التى تدافعين عنها ، ثم عرفت ابنك فاضطرنى أن أترك عملى وأنزوى فى بيتى ، فأطعته غير طامعة بأكثر مما كان يجود به ، ومـا كنت لأطمع أن أتزوج منه ، ولا أن ألد منه ولدًا ، ولكن هذه غلطة وإسـأليـه عنهـا امامى ، وهو الذى يتحمل مسئوليتها ، فقد كنت أدفع عن نفسى مسألة الحمل مرارًا وتكرارًا ، حتى وقع ما لم يكن فى حسابى هذه هى الحقيقة وانتهى الأمر » .

وفى الجمعيات النسائية كان النساء يقلن يخلق من ظهر العالم فاسد « هدى شعراوى » تنجب ولدًا بهذا السوء أما قصة الحب فلها بداية .. فقد حدث ذات يوم أن دق جرس التليفون في منزل المطربة الممثلة فاطمة سرى ، وقال المتحدث إنه إبراهيم الهلباوي بك المحامى المشهور وأن زعيمة النهضة النسائية تدعوها لتغنى فى سرايتها فى اليوم التالى فى حفلة ساهرة .. واعتذرت المطربة عن عدم الحضور لارتباطها بحفلة فى تياترو رمسيس فى نفس الوقت ، ألح الهلباوى بك بأن حضور المطربة مسألة ضرورية هامة جدًا . وذهبت فاطمة واستأذنت الأستاذ يوسف وهبى أن تغنى فى بداية المسرحية بدلاً من نهايتها فوافق ، وبذلك تحضر حفلة هدى هانم شعراوى ، وأذن يوسف وهبى ، وبدأت السهرة ولاحظت فاطمة وهى تغنى أن شابًا يقف فى آخر الصفوف ينصت باهتمام غريب ويلهب يديه بالتصفيق ، ولم تعرف فاطمة هذا الشاب ، وشكرتها هدى هانم وأعطتها عشرين جنيهًا فى مظروف .

وبعد ثلاثة أيام دعاها محمد شعراوى لتناول الشاى معه فى فندق مينا هاوس ورفضت ، وذهبت فاطمة تغنى فى صالة سانتى بحديقة الأزبكية ففوجئت بأن محمد اشترى كل كراسى الصالة لأصدقائه ومحاسيبه يهتفون لها ويهللون ومحمد شعراوى ينظر لها فى صمت ووله ، وبعد ذلك دعاها محمد شعراوى إلى وليمة فى منزل المحامى الكبير إبراهيم الهلباوى ورفضت ، وتابعها محمد من سهرة إلى سهرة ، ومن حفلة إلى حفلة ومن كازينو إلى كازينو كان لا يتكلم بشفتيه كان دائمًا يتكلم بعينيه وكانت عيناه بليغتين فى التعبير عن الوله والشوق والحب والغرام ، وذات ليلة أنهت غناءها فوجدته ينتظرها عند سيارتها فنهرته وانطلقت بسيارتها إلى بيتها وعند البيت وجدته هو يفتح باب السيارة وعادت تؤنبه وتوبخه على هذه =

= المطاردة ووعد أن يفك سراحها إذا دخلت بيتها لتبدل ملابسها وتنزل تركب معه سيارته وصعدت إلى بيتها حائرة هل تنزل معه أم تتركه واقفًا على الباب ؟ ولكن النظرة الحزينة المتوسلة فى عين محمد دفعتها أن تغير ملابسها بسرعة وتندفع إلى الباب وتجلس بجانب محمد فى السيارة ، وانطلقت السيارة والحب ثالثهما ، وبدأت قصة الحب تتطور بسرعة تنتقل بين الإسكندرية والقاهرة ، وكان حبًا شريفًا بدأ بقبلة فى السيارة ، ثم حدث أن أشارت مجلة الصباح إلى هذا الحب فلم ينزعج محمد ولم يغضب وقال لها أريد أن تعرف الدنيا أننى أحبك ! وكانت فاطمة سرى مطلقة من مهندس اسمه سيد البشلاوى رزق منها بولدين تركهما مع أمها ، ولما عاد من بعثة دراسية فى ألمانيا إلى مصر ، وعلم بقصة الحب بين مطلقته ومحمد شعراوى ثار وانتزعهما من أمها .

تعذبت فاطمة لحرمانها من ولديها وإذا بمحمد شعراوي يكتب لها شيكًا بمبلغ ضخم ثمن الأوقات السعيدة التى أمضياها معًا ، فمزقت الشيك ورمته فى وجهه وداست بقايا الشيك بأقدامها وخرجت من البيت غاضبة وغادرت مدينة الإسكندرية بأول قطار ، ولحق بها محمد شعراوى فى القطار التالى ، وأسرع إلى بيتها واعتذر لها عن سوء تصرفه وعرض عليها الزواج واستدعى الشيخ محمد عطية محامى الدائرة ليكتب صيغة العقد .

وعارضت فاطمة لأن العقد عرفى وتريد عقدًا شرعيًا فطلب محمد شعراوى منها مهلة ليحول الزواج العرفى إلى زواج رسمى بعد استرضاء والدته هدى شعراوي وشرعت بالحمل وقررت إجهاض نفسها ، وذهبت عند الدكتور إبراهيم الشوربجى طبيب الولادة المشهور ليجهضها ، فقال لها : إذا أجهضت نفسك فستقتلين نفسك ، ولجأت إلى الوصفات البلدية فمنعها محمد شعراوى وتمسك بالجنين .

وعلمت هدى شعراي بزواج ابنها الوحيد من مطربة فثارت ثورة عارمة واتهمت ابنها بأنه يحاول قتلها بهذا الزواج وأحاط به الكبراء والعظماء والوزراء يضغطون عليه أن يفترق عن المطربة التى أحبها ، فزواجه من مطربة سوف يلوث اسمه وسيقضى على مستقبله السياسى ، فلا يمكن أن يكون زوج مطربة وزيرًا ، وسوف يسىء هذا الزواج إلى أسرة سلطان باشا وأسرة شعراوى باشا من راقصة ولا غنائية ، وأصروا أن وقوف امرأة على المسرح هو عمل فاضح فى الطريق العام ، وبدأوا يهددون فاطمة سرى ، وجاء موظف بوزارة الداخلية يقول لها : إنه سوف يلفق لها ملفًا فى شرطة الآداب يتهمها بالدعارة ، وتحدتهم فاطمة أن يفعلوا ذلك وقالت لهم أنها ستطلق بنفسها الرصاص على أى وزير داخلية يقوم بهذا التزوير !

=

وفجأة استسلم محمد العاشق الولهان لأمه واستسلم لها تماماً وسافر معها إلى أوربا .. ولكن الوله والهوى كان يغلبه فيرسل لزوجته فاطمة سرى .. أرسل لها أن تلحقه فى سويسرا . وعلمت هدى شعراوي فانتقلت به إلى جنوا .. وقال لها الحقينى فى إيطاليا وعلمت هدى أيضاً فسافرت به إلي لوزان .. وأثناء الجرى والسفر والمراقبة الشديدة الصارمة من هدى شعراوى لمحمد ابن أمه الذى يظهر الأدب والطاعة في حجرها .. فإذا ترك الحضن الأممى .. تحول إلى عابث صعلوق يجرى وراء النساء !!

وانتقلت فاطمة إلى عاصمة النمسا ووضعت مولودتها وأطلقت عليها اسم « ليلى محمد شعراوى » وأثبتت الولادة فى القنصلية المصرية فى فيينا بتاريخ ٧ سبتمبر ١٩٢٥ .

وتصادف أن كان مصطفى النحاس باشا المحامى يومئذ فى فيينا فقابلته فاطمة وروت له القصة وقالت : إنها كذبت على محمد شعراوي ، عندما قالت له أن الإقرار فى مصر ، فقد كان الإقرار معها في حقيبتها ، فنصحها النحاس أن تذهب إلى محل زنكوغراف وتحصل على صورة مطابقة للإقرار ، وتسلم زوجها صورة الإقرار وتحتفظ بالصورة الأصلية ، ففعلت فاطمة تماماً ما نصحها به المحامى مصطفى النحاس ! واخذت فاطمة ابنتها ليلى إلى مصر واخفتها عن العيون ، وعاد محمد شعراوى إلى مصر وزارها فى بيتها وسأل عن المولود ، فأخبرته أنها طفلة اسمتها ليلى محمد شعراوى وأحضرتها له ، فأظهر الأسف وقال لها : يا ليتها كانت ولداً ! وإذ به يسألها عن الإقرار ؟ وسألته : هل يهمك جداً الحصول على هذه الورقة ؟ وقال محمد : بهذا الدليل تثبتين إخلاصك لى إلى الأبد ، وكانا جالسين على كنبة فى غرفة المائدة ، فأخرجت فاطمة الورقة من تحت خشبة المقعد وسلمتها له ، وظهرت الدهشة على وجه الزوج لأنه لم يكن يتوقع أن تفرط في هذا الإقرار الهام بهذه السهولة وفحص الورقة فحصاً دقيقاً فوجدها بخطه وبلون الحبر الذى كتبت به ، ولم يتمالك نفسه وقال لفاطمة : أنت أشرف امرأة فى مصر ، ثم جثا على قدم فاطمة وقبلها وطلبت منه فاطمة أن يمزق الورقة فرفض وقال : سأحفظها فى مكان أمين لترثنى ابنتى إذا عاشت بعدى ، ثم قبل فاطمة واحتضن ابنته وقبلها وخرج وهو يقول أنه سيعود فى صباح اليوم التالى .. ولم يعد أبداً .

اتصلت به فاطمة فى التليفون فأنكر نفسه ، فإذا وجدته انهال عليها سباً وشتماً وأغلق فى وجهها التليفون .

وأرسلت له « فاطمة سري » محاميها فهيم باخوم ، فاجتهد فى إقناعه باعترافه بابنته وتوسط أن ينهى المسألة على خير ولكن محمد شعراوى قال له : سأرفع عليها دعوى تشهير !؟ كان بالطبع وراءه هدى هانم شعراوى !!

....

وقالت : فاطمة سري لمحاميها ابعث له بأنك ستدخل القضاء فى هذا الأمر بعد أسبوع !! وسلم محمد الخطاب لأمه هدى شعراوى وقال له الهلباوى لا تخف فانت متأكد من أصل الخطاب الذى فيه الإقرار معك .. وقال له نعم ؟! وفجأة ظهر محامى صحف وابن حظ ويعرف الفنانين ومن المعجبين بالأصوات الحلوة وبخاصة « منيرة المهدية » هو فكرى أباظة قرر أن يقف بجوار فاطمة سرى ويرفع صوتها الهامس واستطاع أن يحول .. قضيتها من قضية طفلة إلى قضية أمة ، وطلب مقابلة سعد زغلول زعيم الأمة وقص عليه القصة وطلب منه أن يستدعى محمد شعراوى الطالب بالحقوق وعضو لجنة الطلبة التى تدين بالزعامة لسعد زغلول ليطلب إليه أن يعترف بابنته ولا يكون مثلاً سيئًا للشباب ، ولكن سعد رفض أن يتدخل وقال إنه لا يحب أن يتدخل فى المسائل الشخصية وزيجات وطلاقات أنصاره !! وعاد فكرى أباظة إلى سعد يقول له إننى هذه المرة جئت لك لتحمى فلاحة مصرية من الدولة ، إن عدلى يكن باشا رئيس الوزراء وعبد الخالق ثروت باشا وزير الداخلية طلبا من وزير العدل أن يتدخل فى هذه القضية ويضغط على القضاء ، وأجاب سعد أنه سوف يحقق فى المسألة ، واستدعى أحمد زكى أبو السعود باشا وزير الحقانية سأله فأكد رواية فكرى أباظة وأضاف أن الملك فؤاد شخصيًا طلب أن يكون الحكم لصالح هدى هانم وسأله سعد : وما رأيك أنت ؟

قال وزير العدل : أرى « إن هذا ظلم » .

قال له سعد : لو حدث هذا التدخل فى القضاء فسوف تصبح المسألة سياسية لا شخصية ، وسأقف بنفسى فى مجلس النواب أطالب بإسقاط الوزارة فليس من حق إنسان أيًا كان أن يظلم مواطنة ضعيفة ، الحق معها ! هذا اعتداء على الدستور .. وتراجعت القوى الهائلة التى قررت أن تسحق المطربة ، ووكلت هدى هانم أعظم المحامين لدى المحاكم الأهلية والشرعية فى مصر ، وأنفقت مئات الألوف من الجنيهات لتثبت أن فاطمة سرى أفاقة ونصابة ومحتالة ولم تضعف فاطمة ولم تتردد أو تنهار كانت تدخل المحاكم وهى تحمل ابنتها فوق كتفها كأنها تحمل علمًا يمشى خلفه الأنصار والأصدقاء ! وكان وجه ليلى الصغير عجيبًا لا تكاد تنظر إليه حتى تجد التشابه العجيب بين محمد وابنته نفس العينين نفس الشفتين نفس النظرة ، نفس الابتسامة ! كان وجه ليلى شعراوى أهم وثيقة رسمية تؤكد بالدليل القاطع أنها ابنة محمد شعراوى ، واستمر الصراع سنوات وسنوات ، معارك ومرافعات ، وضغوط وتدخلات ، وقضاة يصمدون للإغراء ، ومحامون يتصيدون الأدلة والمستندات ، وإذا بالمحكمة الشرعية العليا تحكم بأن ليلى هى ابنة محمد شعراوى ، وفي الحال قررت هدى شعراوى أن تطلب بنوة الابنة ونجحت فى ذلك فتحت لها سرايتها وضمتها إلى صدرها وكأنها تعتذر لها - أما أمها فقد أبقتها خلف الأسوار .. وقالت لمحمد .. انسى الموضوع .. لا عودة للماضى

وفى كتاب (د. آمال كامل السبكى) سابق الذكر ذكرت أساس هذه المعارضة وموقف هدى شعراوى :

لقد رأت هدى شعراوى أن هناك ثمة تعارضًا أو تناقضًا ما بين المادة التى تنص على إنهاء الاحتلال العسكرى البريطاني والمادة التى تقضى بإبقاء الجنود البريطانيين فى بعض المناطق الهامة فى مصر ثم أرسلت هدى شعراوى تحتج على التكاليف الباهظة التى ستدفعها « المحروسة » بناء على نصوص معاهدة سنة ١٩٣٦ فى الوقت الذى يطالب فيه الشعب النحاس باشا بخفض النفقات .

ظلت هدى شعراوى مستمرة فى هجومها على النحاس باشا والوفد بعد عقد المعاهدة وبعد مؤتمر مونترو . ولكن البعد الكامل عن الوفد تجلى فى موقفها المؤيد للسعديين والمتعاطف معهم فعندما أخرج النحاس باشا كلاً من النقراشى وأحمد ماهر نشرت مقالاً طويلاً ضد الوفد تحت عنوان : (أخطاء السياسة الداخلية فى عام) عابت فيه على النحاس باشا سياسة الذاتية رغم كونه زعيمًا للأغلبية واتهمته بأن الاستقلال فى نظره لا يعدو أن يكون استقلالاً بالحكم واضطهاد لمعارضى الوفد كما عابت عليه إسرافه فى منح الرتب والنياشين والترقيات لمناصرى سياسته وتلك المحسوبية التى لم تنج منها فى نظرها سوى وزارة المواصلات التى كان النقراشى وزيرها وكذا ميزانية مجلس النواب التى أشرف عليها أحمد ماهر .

= وقابلت هدى شعراوي فاطمة سرى وقالت لها لن أحرمك من رؤية ابنتك وهذا كل شيء وكل ما أوعدك به !! وقالت لها فاطمة سرى أخذتى زجلى الذى أحببته على مهلى .. حتى ضعفة أحببته والآن تأخذى ابنتى .. وقالت لها أولم تقل كان هناك الخادم النوبى يوصلها إلى الباب والمعنى الزيارة انتهت ..

وفى الحديقة تمتمت المطربة بدعاء وهى تنظر إلى السماء .. وفى الوقت الذى كانت فيه ليلى محمد شعراوى فى أمريكا تتعلم .. كان أبوها يدخل فى قصة جديدة .. إنه يعشق الفن وهذه المرة مع الراقصة أحلام وزواج على سنة الله ورسوله بفرح ورزق منها بثلاثة أولاد .

وقال الناس آه لو عرفت هدى شعراوى .. اللى « ما يرضى بالخوخ .. يرضى بشرابه !! » .

ولم تعلم هدى هانم بالكارثة الجديدة فقد ماتت بالسكتة القلبية وهى جالسة تكتب بيانًا فى فراش مرضها تطالب فيه الدول العربية بأن تقف صفًا واحدًا فى قضية فلسطين .

ثم كان فى تأييدها لاتهام النقراشى للنحاس باشا فى موضوع الزعامة المقدسة ما يثبت هذا النهج الجديد فى سياستها المؤيدة للسعديين وأحزاب الأقليات والرامى إلى أبعاد الوفد بعد أن انتهت مهمته كما رأت بعقده لمعاهدة سنة ١٩٣٦ ويتضح ذلك من قولها . (يطالب النحاس الجميع بالطاعة العمياء لزعامته باعتبارها زعامة معصومة من الأخطاء . ثم يطالب أن يفنوا أشخاصهم فى قدسية زعامته دون أن يسألوه عما يفعل) .

استمرت هدى شعراوى تحتج على وجود كتائب « القمصان الزرقاء » رغم ما أعلنه الوفد مراراً بأن الباعث لوجودهم هو حماية الديمقراطية من عبث القوات الأخرى مثل « القمصان الخضراء » التى كونتها « مصر الفتاة » وكتائب الكشافة التى أعدها الإخوان المسلمون وطلبة النضال أو كتائب المقاومة التى نظمها اليسار والتى نزلت أثناء حوادث فبراير سنة ١٩٤٦ بعد ذلك . نقول أن احتجاجها هذه المرة سببه أن تلك الكتائب أصبحت أداة إرهاب فى البلاد ومنبع قلاقل وكثيراً ما سببت رعباً للجماهير باعتداءاتها المتكررة عليهم كذلك الخسائر التى يحدثونها بتعديهم على المحال التجارية والمكاتب والمنازل وهذا فى نظرنا يتعارض مع الديمقراطية التى يقول الوفد أنه حاميها . وفى اعتقادى أنها كانت موضوعية فى نقدها هذا .

استمر عداء هدى شعراوى للوفد حتى قالت عنه أنه ميراث تبدد وثوب تهلهل والميراث الذى تبدد في نظرها هو تركه سعد زغلول السياسية التى ورثها النحاس باشا فبددها وأما الثوب الذى تهلهل فهو ثوب الوفدية الذى ورثه النحاس باشا مع التركة السياسية المهلهة فأوسعة تمزيقاً . ثم أشارت إلى اختلاف برنامج الوفد عن باقى الأحزاب السياسية لذلك لا مبرر لبقائه فى الحكم .

لم تتوقف هدى شعراوى عن مناهضتها للوفد حتى أنها تقدمت باحتجاج باسم الأمهات المصريات استنكرت فيه إعتداء البوليس على الطلبة كما أحتجت على خنق حريات الجماهير واعتدائها على دور المعلم ، إذا واجب الحكومة هو احترام الدستور الذى يكفل حرية الرأى للشعب وإن كانت الوزارة عاجزة عن القيام بهذا لتترك الحكم لغيرها .

وفى بداية الأربعينات وقفت هدى شعراوى مع نبوية موسى فى مناصرة القصر والملك فاروق . وبعد حادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ أصبحت أحد الوجوة المعتمدة عند احمد حسنين باشا « رجل القصر والملك » حتى أنه لجأ إليها فى بعض مشاكل فاروق مع زوجته « الملكة فريدة » ولذلك حصلت على الوشاح الأكبر من نيشان الكمال من الملك فاروق فى حفل الاتحاد النسائى .

وعند وفاتها أرسل الملك فاروق والإمبراطورة أخته فوزية والأميرة فايزة مندوبين عنهم للتعزية وكذلك الهيئات التى كان يشرف عليها أميرات القصر مبرة محمد على وسيدات الهلال الأحمر .

وقد كانت هناك حربًا باردة بين (منيرة ثابت) ومجلة (الأمل) التى أسسها الوفد عام ١٩٢٥ لتكون مناصرة لأرائه بعد تأسيس هدى شعراوى لاتحادها النسائى - فكان من الطبيعى أن يكون التنافس بين الإثنين لاختلاف الآراء والأهداف .

إلا أنه سنة ١٩٢٣ دعتها هدى شعراوى والاتحاد النسائى للاحتفال بأول دفعة من خريجات الجامعة وكن أربعة فتيات ثلاثة من كلية الآداب ومنيرة ثابت نفسها باعتبارها حاصلة على ليسانس الحقوق من غير الجامعة المصرية وكما تقول سيزا نبراوى أن سبب دعوتها هو ضمها إلى الاتحاد النسائى !؟ ولم تتجه منيرة ثابت إلى الاتحاد النسائى وتشارك فيه إلا عندما اهتمت هدى شعراوى بقضية فلسطين (عرضت القضية فى مجلة المصرية لإضراب شعب فلسطين ١٩٣٦ وظهرت فيه مبادىء الحاج أمين الحسينى مفتى فلسطين - وأوضحت التحقيقات المنشورة أنه أطول إضراب عرفته البشرية لاستمراره ٦ شهور) .

اصبحت فلسطين موضوع أساسى فى مجلة المصرية منذ إنشاء المجلة باللغة العربية . ولم تجذب قضية فلسطين منيرة ثابت وحدها - وإنما وجدنا زينب الغزالى (الإخوان المسلمون) تقبل الاشتراك فى نشاطات هدى شعراوى فى (هذه القضية وحدها) . فى الفترة بين ١٥ و ١٨ أكتوبر سنة ١٩٣٨ عقد « المؤتمر النسائى الشرفى » فى القاهرة وهو من أهم المؤتمرات التى عقدت لنصرة فلسطين قالت هدى شعراوى

فيه أن « فكرة إيجاد وطن قومى لليهود ليست ناشئة عن مجرد عطف بريطانيا العظمى عليها وحبها لها ، وإنما هى وليدة مطامع استعمارية خطيرة خلفتها سياسة طائشة أرادت أن تلعب بالنار لتحقيق مآرب سياسية لها خطورتها على الأمم الشرقية والسياسية العالمية » .

وقالت هدى شعراوى « أن نساء مصر يسوءهن تصرف بريطانيا هذه وإن كان هناك معاهدة تحالف قد عقدت بين بريطانيا ومصر فقد فعلت مصر بعد أن ساعدت بريطانيا بلاد الحبشة الضعيفة ضد إيطاليا وسياستها الاستعمارية فى شرق أفريقيا ولم تكتف بعقد المعاهدة بل دفعتنا الحماسة إلى السخاء فى التنازل لها عن كثير من حقوقنا نظير دفاعها عن جارتنا وانتصارها للأمم الضعيفة .

ولقد استطردت هدى شعراوى بأن هذا رياء ومظاهر لا حقيقة لها لعبة من ألعاب الدول القوية فهى تعترف أخيراً بالاحتلال الإيطالى على الحبشة ثم بعد ذلك تتخلى رويداً عن حماستها وتعضيدها للحبشة وتضحى بصداقة روسيا وتستلم لمطالب هتلر ، وتفسر هذا التراجع بأن اليابان كانت تخطط لتحقيق فرصة اشتباك إنجلترا فى الحرب لتهاجم المستعمرات البريطانية . ومن ذلك نرى أن بريطانيا العظمى لا تستأسد إلا على الأمم الضعيفة ولا تحترم إلا القوة على اختلاف أنواعها ولا يخفى على حضراتكم ما لليهود من قوة مالية » .

ثم اختتمت كلمتها بقولها « إن القوة المعنوية التى كانت ومازالت تملكها العرب لها الغلبة دائماً على القوة المادية لأن القوة الغاشمة تخرب وتدمر والقوة المعنوية تبنى وتعمر ، وهذه القوة تملأ والحمد لله نفوسنا فأبشركن سيداتى بأن الأمة العربية تستعيد مجدها بإذن الله وربما كانت هذه المآسى والتضحيات درسنا لنا وبشيراً لخاتمة حسنة لم تكن فى الحسبان » .

أما عن ممثلات مصر فى هذا المؤتمر فكن السيدة هدى شعراوى رئيسة ونفيسة حرم محمد على علويه باشا ، أمينة حرم الدكتور فؤاد بك سلطان ، بسيمة حرم عبد الرحمن رضا باشا ، جميلة حرم حسن بك أبو شنب ، عزيزة حرم الدكتور

حسين هيكل باشا ، علية حرم محمود خليفة بك ، بهيجة حرم حسن رشدى ، أنصاف حرم منصور فهمى بك ، سيزل حرم مصطفى نجيب ، درية حرم أحمد فكرى ، منيرة ثابت ، مارى كحيل ، إلين صرف ، حواء إدريس إيفا حبيب المصرى ، حنيفة أحمد على علوبة ، تحية محمد ، نعيمة الأيوبى ، زينب الغزالى .

وبالاطلاع على مذكرات هدى شعراوى المنشورة بكتاب الهلال وجدنا مسطوراً بيدها (عندما زرت بيت الله الحرام تصدقت بأموال من مالى ومن سيدات فضلات فى الاتحاد النسائى وبعض الجمعيات الأخرى وتقابلت مع سمو الملك عبد العزيز آل سعود وعرضت عليه فى وقتها إنشاء مدرسة لتعليم الفتيات فحازت الفكرة القبول لديه) .

وفى مجموعة من الدراسات ذكر : أسست هدى شعراوى قبل وفاتها جمعية خيرية من جميع البلاد الإسلامية لرعاية فقراء المسلمين الذين نزحوا من بلادهم للإقامة فى مكة والمدينة بعد أن لاحظت حالتهم المليئة بالشقاء والحاجة ولقد بلغت قيمة التبرعات والمساعدات التى كانت هدى تمد بها المحتاجين والفقراء خمسة آلاف جنيهًا سنويًا » .

ويبدو أن فكرة إنشاء جامعة الدول العربية هى وليدة للمؤتمر النسائى العربى الذى نظمته هدى شعراوى فى القاهرة فى أكتوبر عام ١٩٣٨ للدفاع عن قضية فلسطين (كما سبق ذكره) وكان آخر ما كتبته هدى شعراوى ونشر بالأهرام يوم وفاتها هو تلك البرقية .

« تلقت رئيسة الاتحاد النسائى العربى برقيات من رئيسات الاتحادات النسائية فى الأقطار الشقيقة : العراق - سوريا - فلسطين - لبنان - شرق الأردن - بمناسبة انعقاد جامعة الدول العربية بفوضنها فى اتخاذ القرارات الحاسمة لنصرة فلسطين وتأييد الجامعة فى نضالها كما عبرن فى هذه البرقية عن تنظيم جهودهن لجمع المال وإعداد الكساء وقيد أسماء المتطوعات للإسعاف والاستعداد الكامل للجهاد مع إخواتهن العرب جنبًا لجنب » .

كانت خلاصة آرائها بالنسبة للمرأة منبثق من إيمانها الكامل بكفاءتها ومساواتها للرجل فى كل القدرات - لذا استطاعت رفع السن الأدنى لزواج الفتاة إلى ١٦ عام وللفتى ١٨ عام وقد رأت أن نجاح الارتباط يأتى من الاقتناع الكامل المبنى على المعرفة الجيدة قبل الزواج من خلال الاختلاط فى محيط الأسرة كما آمنت بأنه لا بد من وضع قيود أمام الرجل للحيلولة دون الطلاق خوفاً على سلامة بنيان الزوجية كما أعتبرت أن عدم تعليم المرأة تعليم عالى وفتح كافة آفاق المعرفة أمامها مثلها فى ذلك مثل الرجل سيؤدئ حتماً إلى تأخر المجتمع وتخلفه عن ركب الحضارة .

بقت نقطة دار حولها الجدل واتهمت فيها هدى شعراوى بالانحلال .. !! هل خلعت هدى شعراوى الحجاب وألقته بالأرض فى ثورة ١٩ ؟!

لقد رأيت بمراجعتى أن هدى شعراوى خرجت فى مظاهرتين ١٦ مارس ١٩١٩ ، ١٦ يناير ١٩٢٠ ولم يذكر شيئاً عن خلعها الحجاب !؟

فالحقيقة أن هدى شعراوى وسيزا نبراوي لم يخلعا الحجاب الشرعى الذى يكشف عن الوجه والكفين وإنما خلعا النقاب . ولم يكن ذلك أثناء المظاهرات - وإنما عرف عنهما ذلك فى الوقت الذى كان النقاب منتشراً بين النساء . وفى أراء هدى شعراوى أنها مع السفور الذى لا يخالف الدين ولو خالف التقاليد وقد قررت المستشرقة مارجو بدران ذلك بقولها : أدركت المرأة المصرية أنذاك أن النقاب ليس فريضة دينية ومع ذلك فقد أدركت النساء الضريبة الباهظة التى ستضطرهن هن أو أبنائهن لدفعها إذا ما جاهرن بهذه الدعوة ومن هنا رأين أن يكون التغيير تدريجياً من خلال الفعل لا القول .. لقد تنبأت ملك حفنى ناصف وهدى شعراوى بانحسار النقاب ومع ذلك لم تدع أى منهما لنبذه ، على العكس فلقد حذرت كلتاهما من ذلك فى تلك الفترة .. مع ذلك فبعد ٢٤ عاماً من نشر كتاب تحرير المرأة ووفاة قاسم أمين نزعت هدى شعراوى وسيزا نبراوى النقاب باعتباره رمزاً للقوة الغاشمة والنظام الذى دعا قاسم أمين لمقاومته .

وتستطرد لو كان فعل خلع النقاب من « هدى شعراوى » وزميلتها فعل مرتبط بثورة ١٩١٩ . لما احتاج سعد زغلول لمحاولة تكراره للتأكيد عليه - وبخاصة أن سعد كان أزهريًا فى الأصل .

فقد رفع سعد اليشمك عن وجه ابنة الشيخ على يوسف فى إحدى الحفلات الدينية فى بيت الأمة - ولم يقلع النساء عنه . ووقفت الآنسة فكرية حسنى تلق خطاب على وجهها البرقع . فتقدم سعد أمام الألوف ورفعه - وأصبح هذا أمرًا من قائد الثورة بنزع ما يخفى الوجه - وليس الحجاب .

واعتقد أن ما وصلت إليه (مارجو بدران) هو الرواية السليمة السليمة فقد ذكر مصطفى أمين فى كتابه (الكتاب الممنوع) جـ ٢ صـ ٨ - طبعة دار المعارف ٧٥ .

أما موقف سعد زغلول الحاسم تجاه الحجاب فقد تجلى عام ١٩٢٣ حينما عاد من منفاه واستقبلته مصر كلها استقبال الغزاة الفاتحين . كانت معه صفية زغلول قالت له قبل وصول الباخرة إلى ميناء الإسكندرية .. ألم يحن الوقت لكى أنزع البرقع الأبيض ؟ فالتفت إليها سعد زغلول ثم إلى شابين كانا معها هما واصف غالى وعلى الشمسى ثم سألهما رأيهما وإذا بهما يعترضا بحجة ألا تكون هى البادئة بنزع الحجاب . وإذا بسعد يقول : هذه ثورة ارفعى حجابك .. ورفعته صفية زغلول ثم ظهرت للجماهير لأول مرة بوجه سافر مكشوف وإذا بنساء مصر يتشجعن ويرفعنه بعدها كمظهر من مظاهر الحرية التى رافقت مسيرة المرأة آلاف السنين .

فحتى مصطفى امين لم يعرف الفرق بين البرقع والحجاب !؟ واعتقد أن وقوف المرأة بوجه سافر يعتبر نزعًا للحجاب !! مع أن إظهار الوجه والكفين فى إطار الحجاب الإسلامى السليم .

وقد ركز الإخوان المسلمون على ذلك فمثلاً كتاب محمد قطب « قضية تحرير المرأة » جاء فيه :

عندما احتلت إنجلترا مصر فشلت فشلاً ذريعًا فى غزوها ثقافيًا . لذا تسللت عن طريق المرأة فظهر عميلها قاسم أمين وطالب بتعليم المرأة باعتبارها نصف المجتمع ولما نجحت حملته بدأ يطالب بخلع الحجاب فواجه ثورة كبرى إلا أنه أثناء

ثورة ١٩١٩ شاركت النساء فى مظاهرات ضد الاستعمار الإنجليزى وكانت أول مشاركة للمرأة فى الحياة السياسية وشعر الرجال بمدى بطولتهن وفى إحدى المظاهرات فى ميدان الإسماعيلية وأثناء الهتاف بسقوط الاستعمار فوجئ الجميع بقيام النساء بخلع النقاب وإلقاءه فى الأرض ثم سكب البنزين عليه واشتعلت فيه النيران وعندئذ أطلق على الميدان اسم ميدان التحرير تخليداً لذكرى تحرير المرأة » والغريبة أن كاتب إسلامى « ياسر حسين » فى كتابه (الأميرة التى هزت عرش الخليج !!) وهو كتاب فى جزئين . ينقل هذه الفقرة وحينما يعلق عليها يقول : **التناقض هنا واضح فما دخل الاستعمار بحرق الحجاب ؟ فهل فرضت إنجلترا الحجاب على النساء أم فرضه الله من فوق ٧ سموات قبل ١٤ قرن !؟**

ياعم (ياسر حسين) . محمد قطب نفسه كتب نزعوا النقاب !!

وعن نفس الموضوع تكتب درية شفيق فى كتابها (المرأة المصرية من الفراعنة حتى الآن) . قالت : كان ذلك حوالى عام ١٩٢٣ .. عندما كانت السيدة « هدى شعراوى » قادمة من فرنسا ، وهى لم تبلغ بعد العقد الرابع من العمر ، بمصاحبة كريمتها وزوج كريمتها المرحوم محمود باشا سامى ، وسكرتيرتها السيدة « سيزا نبراوى » وكانت على ظهر الباخرة التى يعود عليها الزعيم سعد زغلول من فرنسا بعد شفائه ، وكانت هدى شعراوى لا تزال تفكر في النظرة التى تقابل بها المرأة المصرية ، حتي أنهم كانوا حين يرون هدى شعراوي وزميلاتها بلا يشامك ولا براقع يتشككون فى مصريتهن ، وفى ذلك المؤتمر الأخير بالذات كانت مندوبات الدول المختلفة . ينكرن على السيدة هدى شعراوى مصريتها ، ولا يكون يتعرفن إلا بمصرية واحدة كانت تصر على حضور المؤتمرات آن ذاك محجبة لا تكشف شيئًا من وجهها . وهى المرحومة « نبوية موسى » . حينئذ قالت هدى شعراوي : مادمنا نظهر فى مؤتمرات فرنسا سافرات الوجه بدون أن يكون فى هذا ما يخدش الحياء والشرف ، فلماذا لا نظهر سافرات فى بلادنا أيضاً !!

- ولكن التقاليد فى مصر لا تسمح بالسفور !

- ولماذا لا تتطور هذه التقاليد مع الزمن !؟

- وماذا نصنع نحن فى هذه التقاليد ؟

- لابد أن يكون لدينا من الشجاعة ما يجعلنا نقوم بدور إيجابى فى ذلك .. لماذا لا نبدأ نحن فتتبعنا الأخريات ؟ .

وقد كان .. فحين وصلت الباخرة إلى الميناء ، بدأت هدى شعراوى ومن معها من النسوة فى رفع اليشامك والأنقبة .

وتحكى هدى شعراوى عن ذلك بقولها « .. ورفعنا النقاب أنا وسكرتيرتى ، وقرأنا الفاتحة ، ثم خطونا على سلم الباخرة مكشوفتى الوجه وتلفتنا كى نرى تأثير الوجه الذى أصبح سافرًا لأول مرة بين الجموع فلم نجد له تأثيرًا أبدًا » .

ثم نجد روايتين « لسيزانبراوى » الأولى شفهية سجلتها مارجو بدران فى رسالتها للدكتوراه والتى عنوانها « هدى شعراوى وتحرير المرأة المصرية » فى حديث أجرى بينهما :

انضم الاتحاد النسائى المصرى إلى التحالف الدولى مع التزام أعضائه فى إطار الحركة النسائية الدولية بالحصول على الحقوق السياسية التى سلبت منها جنبًا إلى جنب مع الحقوق الاجتماعية والاقتصادية .

وعند عودتهن من الاجتماع النسائى نزعت كل من هدى شعراوى وسيزا نبراوى الحجاب في محطة القاهرة وقبل النزول من القطار وذلك أمام حشد كبير من السيدات المهللات .. وجاء هذا العمل بمثابة إعلان رسمى من قبل رائدات الحركة النسائية بإنهاء نظام الحريم ، ووضع حد لعزلة المرأة . والفصل بين الجنسين وبداية الحركة النسائية الرسمية والعلنية فى مصر .. وفى نفس هذا الأسبوع ولأول مرة فى التاريخ ظهر وجه المرأة المصرية فى الصحف المحلية (وذلك بعد مضى حوالى نصف قرن منذ سماع صوتها لأول مرة فى الصحف) . مما أعاد تأكيد بشكل رسمى من جديد وضع حد نهائى لاحتجابها وإنعدام شخصيتها .

والثانية سجلتها فى مذكراتها .. ويبدو أن سيزا نبراوي داهية الحركة النسائية المصرية فهى كانت سكرتيرة هدى شعراوى ثم قفزت من سكرتيرة لمؤسسة

فى الاتحاد النسائى وتولت رئاسة تحرير المصرية بالفرنسية وظلت وراء الحركة فى الخلف .. مكتفية بالدور الثانى السنيد وأستمر حالها كذلك مع درية شفيق .

أما ما سجلته فى مذكراتها :

ففى صيف عام ١٩٢٢ عندما كان رئيس حزب الوفد سعد زغلول وزوجته صفية زغلول فى طريق عودتهم إلى مصر على نفس الباخرة مع هدى شعراوى ، لاحظ رئيس الوفد أن الحجاب كان مرفوعًا عن وجه هدى شعراوى ، ولكنه كان يغطى شعرها (طبقًا لما يقضى به الإسلام) فطلب منها أن تساعد زوجته على وضع الحجاب مثلها وكانت صفية زغلول تهم بمغادرة الباخرة فى الإسكندرية دون حجاب عندما رآها رجال الوفد وأعترضوا بشدة مصممين على أن الشعب لن يقبل ذلك . **وغادرت صفية زغلول وزوجة رئيس الوفد الباخرة بالحجاب بينما غادرت هدى شعراوى رئيسة اللجنة المركزية نساء الوفد الباخرة بدون حجاب .**

* * *

الفصل الثالث

سفر السفور

اخلعن الحجاب وطالبن بميراث متساوى مع الرجل !!

منيرة ثابت

١٩٠١ - ١٩٦٩

اعتقلت السلطات البريطانية الزعيم سعد زغلول مرتين : الأولى فى ٨ ماس ١٩١٩ ونفته مع ثلاثة من رفاقه هم : حمد الباسل ومحمد محمود واسماعيل صدقى إلى مالطة ، كان هذا العمل بمثابة الشرارة التى فجرت مستودعًا من البارود . ففى اليوم التالى انفجرت الثورة الشعبية فى كافة أنحاء مصر اشتركت فيها كل طوائف الشعب من مسلمين وأقباط ورجال ونساء وعمال وفلاحين وطلبة وأثرياء وفقراء .. مما جعلها ثورة فريدة في تاريخ الأمم والشعوب .. وبعد الإفراج عن سعد ورفاقه فى ٤ إبريل - أى بعد أقل من شهر - لم يعد « سعد » إلى مصر ، وإنما أبحر إلى فرنسا ليعرض قضية استقلال مصر على مؤتمر الصلح المنعقد فى فرساى ، وعند عودته إلى مصر فى ٢١ مارس ١٩٢١ - بعد عامين من اندلاع الثورة - استقبلته الأمة استقبالاً لم يحدث لفاتح من الفاتيح ، فكان توكيلاً جديداً أبلغ من التوكيلات المكتوبة التى قدمتها الأمة لتفويض « سعد » فى المطالبة باستقلال البلاد .. ورغم أنه قد صار شيخًا جاوز الستين ، إلا أن عزيمته الصلبة وشكيمته القوية لم تدفع به إلى الهدوء والسكون ، فاستأنف الجهاد والنضال وكأنه شاب فى الثلاثين وحرك الأمة من أجل التمسك بحقوقها .. وصارت مصر معه شعلة من الكفاح الوطنى ، فكان الاعتقال الثانى فى ٢١ ديسمبر ١٩٢١ .. وفى هذه المرة كان معه ثلاثة من المسلمين هم : مصطفى النحاس ،فتح الله بركات وعاطف بركات .. واثنان من الأقباط هما : مكرم عبيد وسينوت حنا .. وتم نقلهم من السويس إلى مستعمرة « عدن » ، ومنها إلى جزيرة سيشل بالمحيط الهندى ومنها إلى مستعمرة جبل طارق ، ولم يفرج عنهم إلا فى ٢٣ سبتمبر ١٩٢٣ ..

بدأ اتصال السيدة « فهيمة ثابت » « بصفية زغلول » عقب مظاهرة السيدات الأولى فى مارس ١٩١٩ وبعد اعتقال « سعد زغلول » ورفاقه .

سارت المظاهرة النسائية وهى تهتف وتندد بالإنجليز ، وسرعان ما تم حصار هذه المظاهرة بمجرد وصولها إلى « بيت الأمة » ، وصعد عدد كبير من هؤلاء النساء إلى لقاء « أم المصريين » ثم هبطت إحداهن وهى تخطب فى النساء قائلة :

- إن أم المصريين وهى تحيى حضراتكن ترى من اللائق التزام جانب الهدوء والسكينة بعدما سجلته المرأة المصرية بموقفها من الجهاد لإنقاذ وطنها العزيز . بعد ذلك تم تنظيم مظاهرة نسائية ضخمة طافت شوارع القاهرة بالسيارات ، وقدمت النساء احتجاجات إلى قناصل الدول ثم عدن إلى بيت الأمة ، وكانت هذه هى المرة الأولى التى تلتقى فيها السيدة « فهيمة ثابت » بأم المصريين !!

ثم تمضى « فهيمة ثابت » تقول فى مذكراتها بعد ذلك :

- « فى صبيحة يوم الاعتقال دق ناقوس الهاتف من منزل إحدى صديقاتى فقالت إن السلطة اعتقلت « سعد » ونقلته فى عربة مقفلة ، ولا يعلم إلا الله أين هو الآن ؟! »

فاستولى علينا الذعر لذلك اسرعنا إلى بيت الأمة ، حيث تلتقى جماعتنا لمواساة أم المصريين ، التى راحت بدورها تروى للنساء الحوار الذى دار بينها وبين اللورد اللنبى عندما فاجأته بقولها :

- إنى طلبت إليكم ان تعتقلونى مع قرينى سعد لأتولى السهر على راحته لأنه مريض ويحتاج لعنايتى فلم تقبلوا (!!) ولما علمتم ان الوفد يجتمع فى بيت الأمة ارسلت تصرح لى بالسفر واللحاق به ، فاعلم إذن اننى ارفض السفر !! وسأقوم مقام سعد وسأقود الحركة الوطنية بنفسى ، وسيظل منزلى مفتوحاً إلى آخر نسمة من حياتى ، والقوة لها ان تفعل ما تشاء » !

ثم تضيف « فهيمة ثابت » :

وقادت ام المصريين الحركة الوطنيو بإيمان وثقة مدة إقامتها فى مصر ، ولما نقلوا الزعيم من « سيشل » إلى « جبل طارق » وهو معتل الصحة ارسل إليها برقية للشخوص إليه « السفر » فلبت نداء الواجب فسافرت إليه فى الحادى والعشرين من سبتمبر ١٩٢٢ .

وذهبت السيدة « فهيمة ثابت » لحضور الاجتماع المنعقد فى بيت الأمة للاستفسار عن صحة « سعد زغلول » ، وتضيف « فهيمة » لتصف ما جرى فتقول :

« دنوت منها فسمعت إحدى الزميلات تقول لها :

- ألم ترد رسالة من الزعيم ؟! وكيف كانت صحة معاليه بعد مغادرته «سيشل» إلى « جبل طارق » ؟!

فأجابت « أم المصريين » متأثرة :

- نعم قد وصلنى منه خطاب يرجونى فيه أن أمضى إلى جبل طارق لأنه مريض . وفى هذا الخطاب يقول كذلك : « إذا سمحت ولم يكن السفر يتعبك فأقدمى إلىّ الآن لأنى محتاج لعنايتك .. » فما أنبل شعورك يا سعد !! وقد أجبت فى الحال بأنى قادمة فى أول باخرة ، وصممت على السفر ولو اشتد مرضى لأن الواجب ينادينى أن أكون بجانبه أتولى مواساته وأشاطره عبء النفى فى سبيل الوطن ، ولكننى أشعر بمسيس الحاجة إلى أن تصحبنى إحدى المواطنات لأنى تعبة مجهدة وأحب أن تكون معى فى رحلتى مصرية مخلصة لتؤنسنى وتسرى عنى ولم يسعدنى الحظ حتى الان بهذه الأمنية ، مما اضطرنى إلى استدعاء ممرضة أجنبية غير أنى رفضت أن تصحبنى هذه الممرضة أيضًا وكان ذلك فى وقت متأخر بعد أن تمت إجراءات استخراج جوازات السفر إذا تبين أنها تريد أن يكون معها فى هذه الرحلة رجل تقول إنه خطيبها !!

وأنهت « صفية زغلول » حديثها بقولها : والان تجديننى فى حيرة إذ لم يبق سوى خمسة أيام تبحر بعدها الباخرة !!

وتقدمت عشرات السيدات تعرض كل منهن السفر معها لكن صفية شكرت لهن هذه العاطفة النبيلة وقالت :

- أنا لا أحب أن تبتعد سيدة عن قرينها وضميرى لا يرتاح إلى ذلك !!

كانت السيدة « فهيمة ثابت » وحسب كلامها تسمع ذلك كله دون أن تبدى ما يدل على شىء ، وبعد ان عادت إلى منزلها تحدثت مع افراد أسرتها وتبادلوا الرأى

والمشورة بعد ان شرحت لهم كل ما دار بالتفصيل ، ثم كان اقتراحها بأن تسافر مع أم المصريين وان لا تدعها تعانى الم الغربة والوحدة ، وكان جواب الأسرة بأنه « ليس لديهم ما يمنعهم من التشجيع على واجب وطنى نحو أم المصريين بل نحو مصر أم الجميع » ..

وعلى أثر ذلك أوفدت شقيقتى إلى بيت الأمة لإبلاغ رغبتى فإن صادفت قبولاً أسرعت إلى مقابلة أم المصريين فى غير خجل وقد قالت عصمتها لشقيقتى : « كيف تتمكن من ذلك وماذا تصنع بفراق نجليها فأقنعتها بأنهما فى رعاية عميهما وخالتيهما في حياة لا ينقصها من الراحة شئ » .

فتقبلت أم المصريين ذلك قبولاً حسنًا ، وعندما علمت الكثيرات من ذوى قرابتها أبدين السرور والارتياح لأن أكون صاحبة الشرف فى مرافقتها من مصر » .

كان وراء هذا القرار. أخت فهيمة ثابت الطالبة بكلية الحقوق الفرنسية (منيرة ثابت) التى قررت أن تقوم برعاية أولاد أختها باعتبارها خالتهم . وهى التى ذهبت لبيت الأمة وأقنعت صفية زغلول تمامًا بقبول أختها - وهددت بأنها ستسافر هى وتقطع دراستها . إذا لم تذهب (فهيمة ثابت) مع أم المصريين تحت أى ظروف ...

وانطلقت الباخرة في طريقها إلى جبل طارق ، وتقول « فهيمة ثابت » :

« أخذنا نتجاذب أطراف الحديث ، وانتبهنا علي قدوم سيدة تمد يدها لمصافحة « أم المصريين » على غير تعارف سابق سوى انها سمعت بالشىء الكثير عن مكانتها ، فرحبت بها وأجلستها بجانبها واكرمتها ثم دعت السيدة قرينها وقدمته إلى ام المصريين وهو وزير الأفغان المفوض بدمشق فى طريقه إلى منصبه الجديد وقالت إنه يكن لمصر انبل العواطف ويعلم الله نحن فى بلادنا وقلوبنا معكم » .

ثم أقبل أحد السوريين وأدى التحية كذلك وقال :

« بلادنا تحييكم وتدعو لكم بالنصر وترجو لكن عوداً سعيداً مع زعيم مصر » .

باختصار شديد جاء العشرات يحيون ويصافحون أم المصريين مما دعا « فهيمة ثابت » المرافقة لها إلى القول : « استبشرت خيراً مع انى كنت ذاهبة فى هذا السفر معتزمة أن امضى بقية حياتى فى المنفى ، وقلت لأم المصريين :

- إن الله سيكرمنا وسنذهب إلى جبل طارق لنرجع بصحبة الزعيم الجليل

فقالت : إن شاء الله .

وبعد سبع ليال وصلت الباخرة إلى جبل طارق .. وتكمل « فهيمة ثابت » قائلة :

- « قيل لنا إن الباشا ينتظرنا فى حجرة مرتفعة داخل المرفأ تشرف على البحر ثم صعدنا فرأينا الباشا واقفًا فى وسط الحجرة وهو يقول :

- أهلاً أهلاً ، كنت أحب مقابلتكم على الشاطئ لولا أنهم يمنعوننى بلطف وقد أجلسونى هنا فى انتظاركم حيث أرانى الله وجوهكم جميعًا بخير والحمد لله على سلامتكم » .. كان سعد زغلول تبدو عليه آثار التعب والمرض وبعد الاستراحة قليلاً نهضنا ومضينا ثلاثتنا إلي المنزل فى عربة الحاكم ، وزعيمنا يقص علينا بعضًا من أخباره ثم التفت إلىّ وقال :

- لماذا أنت صامتة يا ابنتى ؟! ألا تقصين علينا شيئًا من أنباء مصر المحبوبة ؟!

فقلت « آى فهيمة ثابت » : إننى فضلت الإصغاء إلى معاليكم ، أما مصر والأمة المصرية جميعًا فهى تقدم عظيم إخلاصها وثقتها لرئيسها وزعيمها المضحى بحريته فى سبيلها !

فقال لى : أنت يا ابنتى تحسنين الحديث بعقل وروية - هل سبق أنى عرفتك فى مصر ؟! وهل تذكرين أنى أعرف أحدًا من اسرتك ؟!

قلت : نعم إنك تعرف والدى فهو صديقك « حسين ثابت » بك وكيل محكمة الزقازيق سابقًا وربما تتذكر معاليك يوم العودة من فرنسا حين اشتركت فى تحيتكم مع وفد السيدات !!

فقالت أم المصريين : هى من السيدات العاملات في السياسة منذ البدء فى الحركة الوطنية ومن المؤسسات لجمعية المرأة الجديدة !

وابتداء من يوم الإثنين أول يناير سنة ١٩٢٣ تبدأ « فهمة ثابت » فى كتابة مذكراتها يومًا بيوم وحتى أول أبريل ١٩٢٣ .

اليوميات جاءت بمثابة تسجيل دقيق وأمين ومثير لحياة سعد وصفية فى المنفى ومتابعتهما لما يحدث فى مصر من أحداث سياسية وتطورات هامة ، لكن هناك أيضًا عشرات القصص والحكايات والمواقف الإنسانية ! ..

فى يوميات الأربعاء ٣ يناير تقول « فهيمة ثابت » :

ذهبنا إلى النزهة المعتادة وكنا نتمشى ثلاثتنا ، سرنا فى صمت قطعه علينا غناء صبى صغير تبدو عليه المسحة الإنجليزية وهو يردد الأغنية المصرية المعروفة « يا عزيز عينى أنا بدى أروح بلدى » فلفت سمعنا الباشا قائلاً :

- انصتوا إلى هذه الأغنية . ثم مر الصبى بجانب الباشا وهو يمتطى صهوة جواده ووالده بجانبه يسير مبتسمًا . أما الصغير فقد غنى المقطوعة ورددها وهو يضحك ناظرًا للباشا ثم رفع يمينه بالسلام المصرى وكذا أومأ والده برأسه فتفاءلت أم المصريين بذلك » .

وفى يوميات الخميس ٤ يناير تقول « فهيمة ثابت » :

ذهبنا إلى الرياضة المعتادة وهناك تحدثنا فى السياسة قليلاً وانتقلنا إلى العلم والقرآن فقلت :

- لو كنت من الأغنياء لأنشأت جامعة للفتيات ومعهدًا للسيدات أدربهن على الفروسية وحمل السلاح والألعاب الرياضية والعلم من فقه وأدب وهندسة .

فقال سعد : إن علي شعراوى بنفسه لم يتحمل ذلك من هدى زوجته دعت لإنشاء نادى خاص للنساء للرياضة والسباحة .

وتمضى باقى السطور فى رواية أحاديث سياسية تتعلق بالأضاع فى مصر .

وفى يوميات ٥ و ٦ و ٧ يناير تقول :

« لم تتم رياضتنا إلى نهايتها إذا هبت الرياح فجأة وأنذرت بالعاصفة ، فعدنا مسرعين وجلسنا طيلة النهار ندرس ونكتب ولم نتكلم إلا قليلاً عند الظهيرة فأنشد الرئيس بيتًا من الشعر فقلت لأم المصريين :

- احفظت هذا البيت ؟!

فقالت : لم أحفظ الكلمات التى قالها لى أمس فى الحديقة فكيف أحفظ هذا البيت الآن ؟!

فقلت لها : تذكرى كلمات الأمس من فضلك !

فقالت : البر شىء هين .. وجه طليق وكلام لين !!

وكان معاليه قد ذكرها فى مناسبة حُسن معاملتها للناس وبعد الظهر مضينا إلى السوق وقد أحضرت « أم المصريين » أشغالاً يدوية لتعمل وسائد وبعض الأشياء الصغيرة وفي آخر اليوم كنا متعبين فنمنا فى أوائل المساء .. وفى السادس من يناير واصلنا دراستنا وأسمعتنى أم المصريين ما حفظت من القرآن كما أسمعتها بعض المقطوعات الفرنسية وبعض جمل من تاريخ الأدب !!

وخلال هذه الرحلة عرف سعد زغلول وحرمه كل شىء عن فهيمة ثابت وأسرتها . وما قدموه له وللحركة الوطنية . وتردد بالطبع اسم أختها (منيرة) الثائرة الهادرة . طالبة الحقوق التى تريد أن تهب نفسها لقضية بلادها كمصطفى كامل .

وعرف أن والدها كان معه يتلقى العلم من الشيخ محمد عبده وكيف وقف معه موقف الرجل أثناء ثورة عرابي حينما أعتقل سعد زغلول وكان حسين ثابت نائبًا عن الحكومة فى المرافعة فلم يتهمه بشىء وترافع بطريقة كانت نتيجتها فى صالح سعد زغلول .

وقد رأت صفية زغلول في الفتاتين ما كانت تتمناه وتحلم به ولم تستطيع تحقيقه . وشعرت أنهما (ابنتاها) التى تمنت أن تنجبهما ولكن القدر لم يمنحها نعمة الأمومة !!

كانت (فهيمة) نعمة الصيفة لها ولسعد زغلول فى المنفى . وكانت خطابات (منيرة لها) تثلج قلبها وهى تستهل رسائلها بعبارة : أبى سعد زغلول أمى وأم المصريين صفية هانم .. وأخيرًا أختى وشقيقتى الحبيبة فهيمة . ولذا فإنه كان سهلاً ومتوقعًا بعد أن استقالت السيدة : « هدى شعراوى » من رئاسة لجنة الوفد المركزية للسيدات التى تولت رئاستها السيدة « شريفة رياض » سكرتيرة اللجنة

بعدها ولقد اتسمت بالطابع الهادئ فى العمل . بل لعلنا نقول أن نشاطها تركز فى إعلان تأييدها للوفد فى مواقفه السياسية دون أى نشاط آخر حتى فى المجال الاجتماعى ولم تلبث أن ماتت اللجنة بموت سعد زغلول وانضمت باقى عضواتها سواء فى أثناء وجود سعد زغلول أو بعد وفاته للعمل فى الاتحاد النسائى الذى رأسته هدى شعراوى .

فلقد شعر الوفد أنه فى حاجة إلى شخصية نشطة لتتولى الدفاع عن مواقفه في المجال النسائى فتم اختيار السيدة « منيرة ثابت » لتؤلف جمعية الأمل ومجلة تحمل نفس الاسم وسارت على نهجه . وكانت مجلة الأمل إسبوعية سياسية أدبية اجتماعية من أجل الدفاع عن حقوق المرأة . واستهلت عددها الأول بأبيات من الشعر الطريف قالت فيه :

أمل ألقيه فى الوادى الخصيب ... وبذور فى ثراه لا تخيب

ها أنا اليوم أنمى غرسه ... وليبارك فيه علام الغيوب

وقالت منيرة : إن مبادئ الأمل مستمدة من مبادى الوفد .. ففى المجال السياسى يتم حل القضية الوطنية من خلال مفاوضات مباشرة مع الإنجليز واتباع المنهج السلمى المشروع لتحقيق ذلك . أما فى المجال النسائى فقد نادت بالسعى لترقية التعليم الابتدائى للبنات وتوسيع نطاق تعليمهن الثانوى واشتراكهن في التعليم العالى كالبنين سواء بسواء . والسعى لتحرير المرأة المصرية من قيود جميع العادات والتقاليد على اختلاف أنواعها والسعى لنشر السفور المحتشم وتعضيده بشتى الوسائل والسعى لتقرير تمتع المرأة باستقلالها الشخصى .

ولقد اتسمت (منيره ثابت) بالثورية والجرأة فى مطالبها النسائية أو السياسية حتى أن أختها (فهيمة)[1] رغم أن المجال كان أمامها فى الوفد . أثارت الاستمرار مع (هدى شعراوى) فى جمعيتها المرأة الجديدة .

(١) أصدرت فهيمة ثابت كتابًا عن رحلاتها مع الزعيم وأم المصريين بعنوان « الزعيم الخالد وأم المصريين فى منفى جبل طارق » وقد اطلعت على نسخة صادرة من مطبعة الشمس الحديثة بالقاهرة ١٩٤٨ .

بعد ما نادت أختها بثورة على التقاليد أساسها تغيير قانون الميراث بمعنى أن تتساوى المرأة والرجل فى قيمة ما يحصلان عليه من الميراث ثم طالبت بمنع تعدد الزوجات وأن يكون ذلك فى أضيق نطاق وبرضاء الزوجة الأولى .

وظهرت حنكة منيرة ثابت القانونية حينما أحرجت وزارة (زيور باشا) وتقول د. آمال السبكى فى كتابها السابق الإشارة إليه :

« كان باكورة عمل « الأمل » هو الانتقاد الصارخ لقانون الجمعيات السرية » الذى أصدرته وزارة « زيور باشا » إذ لامت فيه الحكومة على إصداره بل وشككت فى صحة هذا القانون على اعتبار أنه لم يصدر من الهيئة التشريعية . ولم تتوخ فيه مبدأ الفصل بين السلطات فلا يخول مجلس الوزراء سلطة قضائية . فالقانون ليس إذن إلا إجراء استبداديًا أرادت الوزارة أن تتحكم به فى وجود الأحزاب السياسية ولكن يظهر إلى أن هذا القانون قد ألهم الأحزاب والهيئات المصرية لمجرد صدوره فكرة الإضراب السلبى عن تنفيذه وعدم الرضوخ له كما جاء فى قرار الحزب الوطنى ، ولا شك أن هذا الإجماع خليق أن يشل القانون ، وقد اختلفت الآراء فى تقرير علاقة الإنجليز بهذا القانون إذ أن الوزارة لا تجرؤ على إصدار قانون كهذا بغير أن نستوثق من تأييدهم .. وانتهت إلى التأكيد بأن قانونًا كهذا يدفع إلى تأليف الجمعيات السرية .

ولقد شككت المجلة التى ترأسها (منيرة هانم) فى وطنية وزارة زيور ورأت أنها حليفة للإنجليز وأنها أداة لها ضد مصالح الشعب ولامتها على هذا الموقف غير الوطنى . وكفى أن هذا القانون خول مجلس الوزراء سلطة قضائية يتحكم بها فى كيان خصومة السياسين » .

وقد كانت (منيرة ثابت) سابقة لعصرها وعلى جانب كبير من الوعى والنضج والثقافة العالية - ولكنها لم تكن تتلقى الثقافة من ينابيعها الشرقية واعتمدت على ما تقرأ عن فرنسا وما أحدثته الصالونات الأرستقراطية فيها ..

ولذا فلم تعلن السفور الذى لا يتنافى مع الدين كهدى شعراوى وإنما غالت ومالت إلى تقليد الغرب فخلعت الحجاب وظهر منها شعرها وصدرها ومالت إلى

الملابس الأوربية . وفتحت النيران على الحجاب بمعناه الشرعى واعتبرته عادة رزيلة .

ويكشف سكرتير « سعد زغلول » عن جوانب أخرى فى حكاية « منيرة ثابت » فيقول :

« جاءت الآنسة منيرة ثابت إلى بيت الأمة تسبقها هاتان الثورتان : دخول السيدات زائرات إلى مجلس البرلمان ، والمطالبة بالمساواة بين الجنسين ، فاحتلت مكانًا مرموقًا لدى « سعد » وأم المصريين .. وظلت وثيقة الصلة بهما .

واذكر أنها كانت دائبة قبل مجيئها إلى بيت الأمة على إرسال الكتب إلى الرئيس فى شتى شئون المرأة ، سياسية أو اجتماعية ، وكنت بحكم وظيفتى أطلع على رسائلها ، وابلغها ردود الرئيس عنها ردودًا مملوءة بالعطف والتشجيع ، ورحب بها « سعد » و « أم المصريين » وعرفها أنها صاحبة الرسائل الثائرة التى كانت تمطر بها بيت الأمة من الإسكندرية حيث كانت تتعلم ، أو من ريفها فى إحدى قرى مديرية (محافظة) البحيرة .

ساهمت الآنسة « منيرة ثابت » فى الخدمة العامة ، وشرعت تجاهد بالدعاية للزعيم ولحركته ، تكتب المقالات فى الصحف ، وتذيع المنشورات ، وتقوم بقسط وافر من الجهود أحرى أن تقوم به لجنة كاملة . ولقد أصابنى فى تلك الفترة من مشاغباتها التى كانت طابعها فيما تكتب ، وابل من العتاب والحساب فكانت تلصق بى تهمة كل تصرف لا يعجبها صدوره من اللجان النسائية الوفدية ، وكانت تلقى علىّ مسئولية الأخطاء اللغوية والأسلوبية ، بل الأخطاء الموضوعية التى كانت تبدو لها في محررات تلك اللجان ، لأنى أقوم بتوزيع هذه المحررات على الصحف .

وكنت أقبل هذا العنف منها لأنى أعرف أنها ثائرة تحت كنف سعد ؟

وذات يوم قرأت « صفية زغلول » فى صحيفة الأهرام مقالاً ناريًا لمنيرة ثابت ، وبعد فراغها من قراءته طلبت من زوجها « سعد زغلول » أن يقرأه لأهمية ومنطق ما جاء فيه !!

فى هذا المقال المنشور يوم ٣ مارس سنة ١٩٢٤ قالت منيرة ثابت تخاطب رئيس الوزراء سعد زغلول قائلة :

« قرأت أن الحكومة تنوى أن تقيم حفلة شائقة لافتتاح البرلمان المصرى الجديد ، وقد بت أتحرق شوقًا لحضور هذه الحفلة فتساءلت مرارًا : ألا يكون للسيدات المصريات مقاعد فى هذه الحفلة !؟ إنى لأوجه اليوم هذا السؤال علنًا إلى صاحب الدولة رئيس الوزارة السفورى الجليل (تقصد الذى يساند سفور المرأة) إنه حقًا لمن الغبن الفاحش أن تحرم مندوبات الجنس اللطيف من الاشتراك فى الاحتفال بافتتاح البرلمان المصرى .

لقد كان للمرأة المصرية نصيب فى الجهاد لا يقل عن نصيب الرجل ، فمن حقها أن تشترك معه فى حفلة افتتاح المجلس النيابى الذى هو ثمرة ذلك الجهاد المشترك .

ووافقت الفكرة لـ سعد زغلول وقرر تنفيذها على الفور !!

وتقول د. آمال السبكى .

وكان من أهم مطالب « منيرة ثابت » تخصيص شرفات للمرأة فى مجلس النواب ولقد أيدها سعد زغلول فى دعوتها هذه وقالت عنه ذلك : « لست أذكر هنا أنى كنت الصحفية المصرية الوحيدة التى اقتحمت شرفة الصحفيين فى مجلس النواب وإنما يسجل « الأمل » فقط أن صاحبته هى التى أوجدت فكرة تخصيص مكان للسيدات مع الزائرين فى البرلمان عندما أفتتح سنة ١٩٢٤ ، وأهملت السكرتارية أمر السيدات ، وأن دولة زغلول باشا ليشهد بما كان إذا داك لصاحبه الأمل من موقف لأن دولته هو وحده الذى آزرها بالتشجيع وأجاب مطالبها ونفذ فكرتها .

وحسب ما تقول د. آمال كامل بيومى السبكى . فى كتابها (الحركة النسائية فى مصر) :

« اكتسبت مجلة الأمل عداء شديدًا من مناوئى الوفد ومن مناهضى تحرير المرأة سواء بسواء . ولعل أعظم تهمة يمكن أن تتهم امرأة بها فى تلك الفترة هى

تهمة الإلحاد والكفر ، وذلك عندما قدم الشيخ أبو الفضل الجيزاوى أحد شيوخ الأزهر بلاغًا إلى النيابة يتهم فيه صاحبة « الأمل » بالإلحاد والكفر .. والخروج على الدين بالمبادىء التى تنادى بها منذ ظهرت فى الحياة العامة .

إلا أن « منيرة ثابت » كانت من المهارة والوعى بحيث فضحت هذا الاتهام .. وأبانت الغرض من هذا الاتهام ، لا غيرة على الدين كما يبدو ظاهرًا وإنما هو بسبب ما نشرته « الأمل » بمناسبة بحث ميزانية الدولة فى بعض المخصصات ، ومنها مخصصات فضيلته فهل مناقشاتنا هذه المخصصات كانت منا إلحادًا وخروجًا على الدين » .

وما أكثر المرات التى سمعت فيها « منيرة ثابت » سعد زغلول وهو يقول :

« لو كان عدد المتعلمات من نساء مصر أكثر لكان الفضل أعظم وكانت الفائدة أكثر ، إذ أنه يستحيل على شعب أن يتقدم فى هذه الحياة من غير تقدم المرأة ، وتعلمها ، فهى التى يقوم عليها أساس التربية الصحيحة وغرس الملكات الفاضلة فى قلوب الأطفال » .

لقد شجعت مجلة « الأمل » ومنيرة ثابت تعليم المرأة للسبب السابق ولاعتقادها أن النهضة المصرية لن تستطيع المساهمة فيها إلا المرأة المتعلمة .

وكان من الطبيعى أن نقف « منيرة ثابت » بكل قوة وحزم وشراسة فى وجه من يقف ضد تعليم المرأة !!

« ولم يكن غريبًا أو باعثًا على الدهشة أن تتصدى « منيرة ثابت » بكل قوة لمشروع غريب كان يتبناه رئيس الحكومة « زيور باشا » خاص بتعليم الأسر الأرستقراطية !!

كان « زيور » باشا قد أقترح إنشاء مدرسة خصيصًا لبنات الأسر الأرستقراطية يتعلمن فيها فنون المنزل وبعض العلوم والمعارف العامة على أن يتكلف إنشاء هذه المدرسة حوالى إثنى عشر ألف جنية (بأسعار ١٩٢٦) من أجل ثلاثين فتاة يساهمن

بمصروفاتهن التى لا تزيد على ستمائة جنيه ، وتتكفل الحكومة بسداد باقى التكلفة !!

ثارت وهاجت « منيرة ثابت » وتلقت مجلة الأمل عشرات الاحتجاجات وخاصة من المثقفات على هذه الفكرة .. وبادرت « منيرة ثابت » بإرسال احتجاج شديد اللهجة إلى وزارة المعارف تعرب فيه عن أسفها الشديد لادعاء الحكومة بعدم توفير المال اللازم للإنفاق منه على إنشاء مدارس لبنات الأسر المتوسطة والفقيرة ، وهن كثيرات ، فى نفس الوقت الذى يتدفق فيه مال الحكومة للإنفاق على مدرسة من أجل عدة فتيات من بنات الأسر الأرستقراطية القادرات على إنشاء ما يردن من مدارس ، أما الفقيرات فمسئولية تعليمهن تقع على كاهل الحكومة » .

ولم يكن سعد زغلول » وحده فرحًا ومعجبًا بمنيرة ثابت ، بل شاركه وقاسمه هذا الفرح والإعجاب « صفية زغلول » نفسها !!

واعتقد القراء أن منيرة ثابت هذه اسم مستعار لرجل ، فغير معقول أن تكتب امرأة بهذا الأسلوب العنيف ، فهى لا تلوح بأغصان الزهور وإنما تلقى على الحكومة الطوب ، وتطلق على الوزراء الرصاص ، وتحارب ولا تسالم ، وتهاجم ولا تتوقف !!

وتضاعفت دهشتهم عندما اكتشفوا أن « منيرة ثابت » هذه امرأة حقيقية من لحم ودم ، وأنها ليست سيدة حاصلة على شهادة جامعية ، وإنما هى فتاة شابة طالبة بمدرسة الحقوق الفرنسية بالقاهرة .

كانت « منيرة ثابت » فوق ذلك آنسة جميلة ، رشيقة القد ، ساحرة العينين ، فاحمة الشعر خفيفة الدم ، إذا جلست فى مجلس سيطرت عليه بحماسها وجاذبيتها وقوة شخصيتها ، وكانت مقالاتها تشبهها ، أو كانت هى التى تشبه مقالاتها .

وكان رؤساء التحرير فى تلك الأيام - حسب ما يؤكد مصطفى أمين - « يجدون مشقة فى أن يضعوا « فرامل » لاندفاعها أو يخففوا من عنف لهجتها ، أو يشطبوا

العبارات التى تؤدى بهم إلى محكمة الجنايات ، وكأنها تحرص فى كل مقال أن ينطبق عليه قانون العقوبات !! وعلى الرغم من محاولات الشطب والحذف وسكب بعض الماء على الكلمات الملتهبة كانت تخرج مقالاتها جمرة من نار تحتاج إلى استدعاء فرقة المطافى !!

فلا يمكن أن تكون هذه الجراة لامرأة . إنها شيطانة لقد تطرقت إلى مساوئ الزواج من الأجنبيات فرأت أن الأجنبية ليس لديها أية انتماءات قومية أو ثقافية لمصر . كما أن تشجيع هذا النوع من الزواج يؤدى إلى القضاء على مصير عدد من الفتيات المصريات ولا سيما المسلمات لأن الدين يحرم على المسلمة الزواج بغير المسلم بعكس الرجل . ثم إن فيه مساسًا بالقومية المصرية لوجود جيل مختلط من جنسيات عديدة بعد مدة قصيرة من الزمن ، كما أن الأجنبية ترى اختلافًا جوهريًا فى نمط الحياة الاجتماعية فى مصر عنه فى الخارج يؤدى فى حالات كثيرة إلى الطلاق .

وحاربت تعدد الزوجات تلك الصفة الممقوته التى تسئ إلى الزوجة وتخل بالاقتصاد العائلى . ثم هى فوق كل هذا تنشىء البغضاء بين أولاد الأسرة الواحدة فتنوع الأولاد من أكثر من زوجة واحدة ينشئ الكراهية والمنافسة بين الأطفال للفوز بقلب أبيهم .

هذا وقد استمرت « الأمل » سنوات طويلة تدعوا إلى التخلص من تعدد الزوجات خاصة وأن عددًا كبيرًا من الأسر المصرية ذات المركز المرموق يعانون حياة مدمرة بسبب هذا المبدأ . ثم أنه من العيب أن يترك شيخ متصاب يعبث بمستقبل أبنائه مع وفرة عددهم حبًا منه فى الشراهة والأنانية وتطالب بقانون يبطل تعدد الزوجات ويحكم الاحتفاظ بواحدة دفعًا للجريمة وما يترتب عليها من النتائج السيئة التى تشاهد من وقت لآخر بسبب إهمال فريق والعناية بفريق دون الآخر .

كذلك دعت مجلتها « الأمل » إلى استقلال الأسرة الجديدة عن أهلها إذ أن وجود أهل الزوج بمنزل الزوجية من أسباب الشقاء الأسرى لكثره تدخلهم فى الخلافات التى تقع بين الزوج وزوجته مما يؤدى إلى زيادة الهاوية بين الطرفين المتنازعين مما يدفع الزوج أحيانًا للاقتران بأخرى جديدة يكون لديها الهدوء اللازم فتتكرر مأساة التعدد .

وفى سنة ١٩٢٤ جرت أول انتخابات حرة للبرلمان وحصل الزعيم سعد زغلول على الأغلبية الساحقة وألف أول وزارة شعبية !

وذهبت منيرة ثابت إلى رئيس الوزراء سعد زغلول تحتج عليه لأن وزارته لا تمثل الشعب ودهش سعد زغلول وسألها : لماذا ؟ إن وزارتي أول وزارة فى مصر يدخلها الأفندية !

قالت منيرة ثابت : لأنه ليس فيها امرأة وزيرة !

قا لها سعد زغلول ضاحكًا : جميع الوزراء متزوجون وكل وزير منهم ينوب عن زوجته !

ولم تضحك منيرة ثابت من سخرية الزعيم ، ومضت فى حماسها مطالبة بمنح المرأة المصرية حق الانتخاب بحجة أنها اشتركت فى ثورة ١٩١٩ جنبًا إلى جنب مع الرجال ، وسقطت نساء شهيدات برصاص الإنجليز .

وقال لها الزعيم سعد زغلول : أعدك عندما يخرج آخر جندى إنجليزى من مصر أن أعطى المرأة المصريق حق الانتخاب .

قالت منيرة ثابت : نريد حق الانتخاب للمرأة فورًا !

قال سعد : أخشى إذا أثرنا حكاية منح المرأة حق الانتخابا الآن أن يحدث انقسام فى الأمة ، فلا تزال نسبة كبيرة من السكان لا توافق على اشتراك النساء فى السياسة ، ولا أريد انقساماً فى الأمة أثناء المعركة مع الإنجليز ، وعندما يخرج آخر جندى أجنبى من مصر أعدك بأن أنضوى تحت زعامتك وأطالب للمرأة المصرية بحق الانتخاب !

« وشاءت الأقدار أن تتحقق نبوءة سعد زغلول ، فبعد ٣٢ عامًا فقط - فى سنة ١٩٥٦ خرج الإنجليز من مصر ودخلت راوية عطية وأمينة شكرى للبرلمان لأول مرة بعد أن حصلت المرأة المصرية على حق الانتخاب » .

ولكن منيرة ثابت رفضت أن تنتظر خروج الإنجليز من مصر ، فوجئ سعد زغلول بعد ذلك بوفد من طالبات مدرسة الحقوق الفرنسية فى القاهرة ، وتقدمت منيرة إلى سعد زغلول وقالت له : إن نساء الأمة لم يقتنعن برأى زعيم الأمة بتأجيل منح المرأة حقوقها إلى أن يخرج الإنجليز .

قال سعد : أنا لم أعادض حق المرأة وإنما طلبت التأجيل إلى أن يتم جلاء الإنجليز لأن التقاليد لا تسمح بدخول المرأة البرلمان فى الوقت الحاضر .

وانبرت منيرة ثابت بطول لسانها تقول :

التقاليد منعت الأفندية أن يصبحوا وزراء وأنت عينت واصف أفندى غالى وزير الخارجية ونجيب الغرابلى أفندى وزيرًا للعدل والدكتور أحمد ماهر أفندى وزيرًا للمعارف وعلى الشمسى أفندى وزيرًا للمالية ، إنك رئيس وزارة ثورة وواجبك أن تمنح المرأة حق الانتخاب وتسمح لها بدخول البرلمان .

وفجأة حدثت مصيبة وكارثة هزت « بيت الأمة » !!

لم تصدق « أم المصريين » حرفًا واحدًا مما كتبته صحف الحكومة عن « منيرة ثابت » التى كانت تعتبرها بمثابة ابنة لها !!

كان بطل الكارثة كاتب الوفد الأول الصحفى الكبير « عبد القادر حمزة » !!

لم تصدق « صفية زغلول و « سعد زغلول » ما نشرته صحف الحكومة ، ومؤداه أن « عبد القادر حمزة » صاحب جريدة البلاغ الوفدية يعشق منيرة ثابت صاحبة مجلة الأمل !!

وأن الصحفية الشابة التى تصغره بحوالى عشرين عامًا تبادله هذا الحب !!

واعتقد « سعد زغلول » أنه هو المسئول شخصيًا عن هذه الكارثة التى فضحتها صحافة الحكومة لتدمير سمعته وسمعة الوفد !!

كان « سعد زغلول » هو الذى أشار بتكوين شركة مساهمة لجريدة (لسبوار) الفرنسية يقوم بالإشراف عليها بعض أعضاء الوفد ، واختار الوفد الأستاذ « عبد القادر حمزة » صاحب جريدة البلاغ ليكون العضو المنتدب لإدارة الجريدة فى مجلس الإدارة !!

وهنا بالضبط ، وابتداء من تلك اللحظة بدأت حكاية « عبد القادر حمزة » و « منيرة ثابت » !

تفاصيل حكاية الحب الملتهب والغرام المشبوب يرويها «مصطفى أمين» فيقول :

كانت منيرة تطبع مجلتها الأسبوعية وجريدتها اليومية فى مطبعة « البلاغ » وهي جريدة الوفد الأولى في تلك الأيام ، وكانت « منيرة » تلتقى يوميًا فى دار البلاغ « بعبد القادر حمزة باشا » الصحفى الأول فى مصر بشهادة « سعد زغلول » ولسانه الرسمى !!

وأعجب « عبد القادر حمزة » بشجاعة الكاتبة الثائرة وبحماسها وصمودها ، وتطور الإعجاب إلى حب !!

ووجدت منيرة فى « عبد القادر حمزة باشا فتى أحلامها !!

آنسة جميلة ، رشيقة القد ، ساحرة العينين ، فاحمة الشعر ، خفيفة الدم ، إذا جلست سيطرة على الجلسة بحماسها وقوة شخصيتها ، كيف تتلاقي مع عجوز متزوج له كرش صغير ، يلبس نظارات طبية سميكة أبيض الشعر ، جليل لا يبتسم ، لا يحب الاجتماعات ويقابل الصحفيين واحدًا واحدًا على انفراد . قوى الشخصية نعم ولكن شخصيته ليست طاغية كيف يلتقى الربيع بالخريف - الثورة بالسكون . كان كل منهما يكتب مقالات تشبهه .

هى تنهى مقالاتها ولا تعيد الإطلاع عليها ، تنقلها من فورة قلمها إلى نار المطبعة .

وهو يتأنى فى اختيار اللفظ والمراجعة والشطب ويرسلها لمصحح اللغة العربية ويظل مترددًا حتى اللحظة الأخيرة للمطبعة . ولكنه الحب وأحوال كيوبيد الغريبة .

وقرأ الزعيم سعد زغلول محاولة تلويث الأقلام التى تحارب معه فاستدعى عبد القادر حمزة وسأله : هل صحيح أنك تحب الآنسة منيرة ثابت ؟ واعترف عبد القادر بهذا الغرام الجارف .

وقال سعد : إما أن تتزوجها .. وإما أن تتركها ! أنا لا أتدخل فى حياة أنصارى الشخصية ، ولكنك أنت ابنى ومنيرة ابنتى ولا أريد أن يستمر هذا الوضع يومًا واحدًا .

ورضخ عبد القادر حمزة لرغبة الزعيم وتزوج منيرة ثابت .

ولكن منيرة طلبت من زوجها أن يطلق زوجته الأولى لأنها بحكم مبادئها ضد تعدد الزوجات ، فكيف تقبل هى «ضرة» وهى زعيمة المطالبات بمنع تعدد الزوجات !

ورفض عبد القادر حمزة أن يطلق زوجته الأولى التى شاركته كفاحه وأم أولاده وبناته .

وبدأ النزاع من اليوم الأول ، واحتكما إلى سعد زغلول فحكم بأن يحتفظ عبد القادر حمزة بأم أولاده .

وخضعت منيرة ثابت لأمر الزعيم وتنازلت عن مبدئها بعدم تعدد الزوجات !

قال لها سعد زغلول : إذا لم يعجبك أن تكونى الثانية فأتركيه للأولى . هى أسبق وأكثر حاجة له .

قالت له : ولكن يا سعد باشا أنا معه يحس بالتمام وهو بغيرى يحس بنقص .

قال سعد : معك يكتمل اكتماله وماذا عن أسرته وأولاده أهم صفر على الشمال؟!

قالت : لكنى لا أطيق ذلك .

قال سعد : أنت تحتاجين لإعادة النظر فى قضية (تعدد الزوجات) . العبرة يا ابنتى فى التطبيق .

قالت منيرة : ولكنك لم تتزوج رغم حاجتك للذرية والأولاد ؟!

قال سعد : أهذا مبرر ليترك عبد القادر زريته وأولاده ؟!

قالت منيره : أخاف إذا رضيت أن يتكرر الأمر !!

وقال سعد : أنت التى بدأتى العد ، وعليك النتائج !!

تم حسم عبد القادر حمزة الحوار : أنا لم أخدعك ومستعد للزواج فوراً ، وكنت تعلمين بأنى زوج ولى أولاد . ثم أننى لم أخرج عن الشرع !!

وعاد عبد القادر حمزة باشا يشترط على زوجته الكاتبة الثائرة أن تطلق الصحافة ، وتغلق مجلة الأمل الأسبوعية ، وتوقف جريدة لاسبوار اليومية وتعيش زوجة فى البيت .. زوجةفقط لا تزور ولا تزار ، ولا تكتب مقالات ولا تشترك فى أى عمل سياسى .

وثارت الكاتبة الثائرة ، ثم أخضعها الحب ، واستسلمت بلا قيد ولا شرط وأغلق الحب مجلة الأمل وجريدة « لسبوار » وأطفا ثورتها العارمة وأصبحت « ست بيت » !

وبعد سنوات قليلة انطفأ الحب الكبير ، كان جمال منيرة ثابت فى نظر عبد القادر حمزة هو الهالة التى كانت تحيط بها ، الكاتبة الثائرة ، الزعية الجريئة ، الصحفية الشجاعة صاحبة الجرائد الواسعة الانتشار ، فلما جردها من هذه الأضواء الساطعة أصبحت منيرة زوجة عادية ، هنا انطفأ بريقها ، وهدأت ضوضاؤها ، واختفى سحرها وقد كانت كل هذه الصفات تصنع صورة الأسطورة فلما تخلت عنها أصبحت الزوجة الثانية - بل والضرة بكل المساوئ التى سبق وأن عددتها في جريدة (الأمل) !!

وهاجمت جمعية أمهات المستقبل (الشابات المصريات) المعادية للوفد والتى أيدت صدقى باشا وقالت (تفيدة علام) فى مجلة الجمعية والتى اسمها « أمهات المستقبل » : إن هدى شعراوى ومنيرة ثابت يبحثا عن الشهرة فى كافة انشطتها .. واعتبرت إنشغالهما بالسياسة عبثًا لا داعى منه .

وقالت : هل الثائرة الصغيرة فعلت كل هذا من أجل الحصول على رجل !؟ لقد عبثتى فى العقول بدعوى التقدم وسقطتى لأقصى درجة !!

وأحست منيرة ثابت أنها فقدت بريقها عند زوجها وعند الناس ..

بدأت تشعر مع زوجها بفارق السن وبدأ الشقاق بين الكاتب المتأنى والكاتبة المندفعة .

ويكمل الأستاذ مصطفى أمين قصتها فى كتابه « أحوال شخصية » ومقالاته «أشخاص لا تنسى » فيقول :

وأذكر أنها أرسلت لى فى ١٤ إبريل سنة ١٩٤٩ خطابًا تقول فيه :

« كان يبدو لى فى الماضى - وكم كان هذا يؤلمنى - أنكم تحاربون قضيتى الكبرى المقدسة ، التى حملت أعبائها وحدى - ودون كلل خلال خمس قرن ، كما لو كنت جئت إلى هذه الحياة وعشت من أجلها ، وهى كما تعلمون قضية حقوق المرأة السياسية والاجتماعية ، فكم يسرنى اليوم أن أراكم تخصون قضيتى هذه بعنايتكم ، وتخرجون بها من النطاق الصحفى إلى الميدان الرسمى - البرلمان - والمحدد طبعًا بسؤال واستجواب ثم انتقال إلى جدول الأعمال ، فتسألون الحكومة فى البرلمان عن هذه الحقوق المسلوبة ، حقوقنا فى الحياة نحن النساء !

أجل ، إنكم اليوم تسألون الوزارة أن توضح موقفها من ذلك الكتاب الذى صفعتنا به هيئة الأمم المتحدة ، إذ تطالب حكومتنا وهى تعرك أذنها ! بضرورة تحقيق المساواة السياسية والاجتماعية فى مصر بين الرجل والمرأة .

فكم أنا سعيدة بهذا الإجراء الجديد من نوعه الذى تتخذونه الآن فى البرلمان دفاعًا عن قضيتى المزمنة .

إنكم فى غير حاجة لأن تتلقوا شكرى واعترافى بالجميل ، إنكم تدركون أن من واجب شباب رجالنا النابه المثقف ، الذى أودعت فيه مصر كل رجاء وأمل ، أن يبادر بمعونتنا نحن النساء فى الدفاع عن قضيتنا .

وختمت منيرة خطابها بأنها سوف تنتظر حتى شهر ديسمبر فإذا لم يوافق البرلمان على سؤالى فإنها سترفع قضية على مجلس الوزراء تتهمه بمخالفة ميثاق الأمم المتحدة !

ولكن البرلمان لم يوافق على المساواة بين الرجال والنساء ، والقضاء رفض قضية منيرة ضد مجلس الوزراء ، ولم تيأس منيرة وقامت ثورة ٢٣ يوليو وانتهزت فرصة قيام الثورة وذهبت إلى اللواء محمد نجيب قائد الثورة فى تلك الأيام لتقنعه بمنح المرأة حق الانتخاب ، ولكن قائد الثورة قال لها إن الوقت غير مناسب .

وعادت تكافح من جديد إلى أن منح الرئيس جمال عبد الناصر المرأة المصرية حق الانتخاب ، وحق الترشيح لعضوية مجلس الأمة ، وتقدمت منيرة ورشحت نفسها فى دائرة الزيتون فى شهر مايو سنة ١٩٥٧ ، وتصورت منيرة أن الشعب سيقبل على انتخابها ، وسيذكر جهادها وسوف يستعيد أمجادها ، يوم كانت نجمة فى سماء السياسة المصرية ، الأصابع تشير إليها ، الفتيات يهتفن بحياتها ، الشبان يحاولون أن يحملوها على الأعناق !

ومرت منيرة فى دائرتها الانتخابية ، لم يعرفها أحد ، المعجبون انتقلوا إلى رحمة الله ، الفتيات الثائرات كبرن وأصبحن أمهات مشغولات بمتاعب الزواج وتربية الأطفال ، الدنيا تغيرت ، لا أحد يتذكر معاركها الضارية ضد الرجال ، فنحن فى بلد كل شىء ينسى فيه بعد حين !

وسقطت الزعيمة فى الانتخابات ولم تحصل فى دائرتها الانتخابية إلا على بضعة أصوات !

وفى ١٩٦١ يصل مصطفى أمين خطاب آخر منها :

تقول « إننى أبحث عن عمل بأجر لإنقاذى ، إننى مريضة بمرضين خطيرين أثبتهما الفحص فى أحد المستشفيات ، تم الفحص بمعرفة القومسيون الطبى العام ، أحد هذين المرضين مركز فى عينى ويهددنى بضياع البصر وهناك علاج حديث ابتكره الدكتور باروكير الأسبانى ، هذا العلاج يوقف زحف الضباب ، الضباب الذى يزحف على عدسة العين ، أنا لم أعد أملك غير منقولات « عفش » شقتى ، وهذا العفش محجوز لحساب مؤسسة ضاحية مصر الجديدة مالكة العمارة ، وهذا خلاف دين مطبعة مصر أجر طبع مجلتى .

إننى أريد أن أعمل بكرامة ، أريد أن أكسب أجر بعرق جبينى لأستطيع به أن أعالج بصرى ، وساقى وأسدد ديونى ، لقد وقفت مجلتى عن الصدور بعد أن خلفت دينا ثقيلاً ما يزال يطحننى ، ولكن ليس يفزعنى أن يشردنى الدائنون على قارعة الطريق وأن أموت جوعًا ، إن الموت رحمة ، إنما يفزعنى أن أعيش عمياء .

لقد عملت طوال حياتى بلا أجر ولا مرتب ، واليوم أود أن أعمل بأجر ، إننى أعيش فى ظلام ! حتى الآن أستطيع أن أكتب ولكنى أقرأ بصعوبة ، إن حالتى النفسية سيئة ، قد تتحسن إذا وجدت الرعاية .

ويقول مصطفى أمين :

وارتعشت يداى وأنا أقرأ الخطاب ، إنها نهاية مروعة لبطلة ! وكتبت فى مجلة المصور التى كنت أرأس تحريرها يؤمئذ وقلت : « إننا نرفض أن تعمل منيرة ثابت فى حالتها الصحية المؤلمة ، إن من حقها أن تعالج وأن تستريح وأن تعيش ، إن لها حقًا على كل امرأة فى بلادنا تعمل أو تزاول حقها النيابى أو تجلس تحت قبة مجلس الأمة ، إنها هى التى أضاءت الطريق أمام ملايين نساء العرب اللاتى رفعن الحجاب وأصبحن يعملن جنبًا لجنب بجوار الرجال ، وإننا على ثقة أن الدولة لن تترك منيرة ثابت تعيش عمياء .. وهى التى جعلت الملايين يبصرون ! فلتضئ كل امرأة عاملة شمعة لهذه السيدة العظيمة التى يهددها الظلام » .

وبعد ساعات من صدور عدد مجلة « المصور » صباح الخميس اتصل بى الرئيس جمال عبد الناصر فى مكتبى بدار الهلال وقال لى إنه أمر بسفرها إلى أسبانيا للعلاج على نفقة الدولة واتصل بى حسين الشافعى وزير الشئون الاجتماعية ونائب رئيس الجمهورية وقال لى إنه أمر بسداد كافة ديونها قبل سفرها إلى الخارج .

وسافرت منيرة إلى برشلونة وطلب منها الدكتور باروكير استعمال أنواع معينة من الأدوية لمدة ٦ شهور كاملة ثم تعرض نفسها عليه بعد هذه المدة ، وقطعت منيرة رحلتها بعد ١٢ يومًا فقط ، ولكنها عادت إلى القاهرة تشكو من المعاملة السيئة التى لاقتها من القنصلية المصرية بأسبانيا ، فقد قرر لها الدكتور باروكير عمل ٣ نظارات

طبية كعلاج مؤقت لحين عودتها ، ولكن القنصل المصرى رفض دفع ثمنها بحجة أن المبلغ المحول لها مقرر لعلاج عينيها فقط ، وأنه ليس مسئول عن ثمن النظارات حتى ولو كانت طبية !

ولم يكن معها من النقود سوى المال المحول لها للعلاج ، وإزاء هذا الأمر اضطر القنصل إلى أن يسلمها نظارتين اثنتين بعد أن حصل عى شهادة من الدكتور باروكير بأن هذه النظارات امتداد للعلاج الذى حضرت من أجله .

وفى الموعد الذى حدده الدكتور باروكير لعودتها إلى أسبانيا مرة ثانية حولتها وزارة الصحة إلى القومسيون الطبى ليوافق على سفرها .

وكانت المفاجأة أن القومسيون الطبى رد بأن حالة عينى المريضة لا تحتاج إلى علاج طبى أو تدخل جراحى !

وفى ١٧ سبتمبر سنة ١٩٦٢ استيقظت منيرة ثابت من النوم فوجدت الدنيا ظلامًا .. أضاءت النور الكهربائى الذى بجوارها ولكنها لم تر شيئًا وأيقنت أن الكارثة حلت بها وأنها لن تستطيع الإبصار .

وكانت منيرة ثابت فى شبابها أجمل صاحبة عينين فى الوسط الصحفى .

ومن سخرية القدر أن اسمها كان « منيرة »[1] وأمضت بقية حياتها فى ظلام !

* * *

(١) شىء يشبه ذلك تعانى منه الفنانة / سعاد حسنى فى علاجها بالخارج الآن . وتحاول نقابة الممثلين وبعض كبار نجومها من خلال الاجتماعات والجلسات رفع الأمر لرئيس الوزراء !؟ ولكن أحد منهم لم يفكر فى المساهمة بالمال فى علاجها رغم ما فتح به الله عليهم من مكاسب وأموال .. فيا سادة بعض المال بدلاً من الكلمات - بعض الفعل بدلاً من الحناجر !!

الفصل الرابع

سفر التحول

رفضها يوسف وهبى وقبلها سعد زغلول !!

فجأة وبدون إنذار تابعت مظاهرة النساء الزغلولية فى ١٦ مارس ١٩١٩ . مظاهرة أخرى أكثر عجب وإتقان .. إنها مظاهرة فنية قادتها (روز اليوسف) !! كان من الواضح أنها مظاهرة وفدية قلبًا وقالبًا !! النداءات فيها نفس النداءات والشعارات هى الشعارات التى فى مظاهرات ثورة ١٩ : سعد . سعد لا نريد إلا سعد . معانا فى المنفى معانا فى الوطن ولكن ظهر نداء خاص بطبيعة المظاهرة يقول :كل زلة تغتفر إلا من خان بلاده فقد كفر !؟

وإذا كان البعض يرى أن مظاهرة النساء فى ١٦ مارس ١٩١٩ خلعت فيها النساء النقاب وحرقته وهو قول محل شك وتفنيد ، فإنه كان هناك اتفاق على أن مظاهرة (روز اليوسف) كانت بالروج والكحل والوجوه الواضحة والعيون الظاهرة وبعض الآلات الموسيقية !!

كانت المظاهرة ببساطة شديدة تثبت أن الفن لا يتخل عن قضايا البلاد ، وأن الثورة الزغلولية ليست ثورة حزب الوفد بل ثورة مصر - وأن الفن ولو وضع تحت الأقدام فإنه يصنع الوطن فوق الرؤوس .. فعلت ذلك (روز اليوسف) بعفوية شديدة وبلا ترتيب وباندفاع تلقائى لم تكن وقتها عضوة فى حزب ولا تفهم فى السياسة وليس لها أحلام متعلقة بقضية المرأة وإنما ممثلة مسرحية تحرز بعض النجاح وبعض الإخفاق - وتغير من (فاطمة رشدى) الذى سموها سارة برنارد والشرق . وتختلف مع يوسف وهبى إلى حد طردها من فرقته بعبارة من عباراته إياها : معى يتذكرك التاريخ وبغيرى سينساكى الناس . حتى « حندقة » لبيستك حين تراك فى الشارع ستبحث عن اسم صاحبة هذا الوجه فى ذاكرتها !؟

وحتى الآن لا يزال المؤرخون حيرى فى التنظيم المتقن لهذه المظاهرة . فى حين مظاهرة هدى شعراوى الأولى . حدث فيها بعض الأخطاء .. فقد اتجهت سيدات المقدمة إلى مكان غير المتفق عليه . واختصر فيها البعض مسافة سير المظاهرة بالاتجاه لبيت الأمة لمقابلة صفية زغلول !!

والغـريب أنه حـتى هذا التـاريخ لم يكن قـد حدث لقـاء واحـد بين روزاليـوسف وسعد زغلول !

ويذكر ذلك عبد الرحمن فهمى فى مذكراته :

« أما الفنانين فى المسارح فقد شاركوا أيضًا بجهد محسوس ، إذ ذكرت « روزاليوسف » أن المسارح ظلت بممثليها تعمل رغم قلة المتفرجين إذ أن الصالات لم يكن بها سوى متفرج واحد أو اثنين وقد يفتح الباب فجأة ويندفع إلى الداخل شبان من الثوار يسرعون إلى الاختفاء من مطاردة الإنجليز فى حجرات الممثلات وخلف الستائر بالمسرح ويحتفظ الممثلون بهدوء أعصابهم لمقابلة الجند وإقناعهم أن أحداً لم يدخل » .

« قرر الفنانون يومًا أن يقوموا بمظاهرات أسوة بسائر الطوائف فى مصر ، وكانت كل المظاهرات ممنوعة ولا تقابل إلا بإطلاق النار وكانت كل المظاهرات تخرج وقد استعدت للعودة بعدد لا بأس به من القتلى والجرحى وفى الساعة المحددة خرجت كل فرقة من المسرح الذى تعمل فيه - روزاليوسف - وقد حملت علمًا كبيراً والتقت الفرقة كلها فى ميدان « الأوبرا » أمام فندق « الكونتننتال » وكان فى السائرين بعض الممثلين منهم چورج أبيض - عبد الرحمن رشدى - عزيز عيد - نجيب الريحانى - زكى طليمات - محمد عبد القدوس - محمد تيمور ، وكل من كان يعمل فى المسارح ممثلاً أو عاملاً وكانوا بملابس التمثيل المختلفة ، وتقدمت المظاهرات عربة حنطور تركبها « روزاليوسف » و « مارى ابراهيم » ، ومعهما محرراً بالأهرام كان عبد الحليم الغمراوى . وكان مديراً أيضًا لمسرح بروتيانا ، سارت المظاهرات تقطع ميدان الأوبرا ومن حولها جنازات الشهداء وصيحات الجماهير ، وتحت تمثال إبراهيم باشا مباشرة كان جنديان إنجليزيان صريعان ثم تصدى لهم جنديان آخران ما إن رفع إحداهما بندقيته حتى عالجته رصاصة أحد الثوار المصريين وكان مختبئًا فى شارع جانبى متفرع من عدلى ، وأسرعت المظاهرة عائدة إلى مسرح بريتانيا » .

ففى سنة ١٨٩٦، أى منذ حوالى ١٠٠ سنة ، وُلدت فى مدينة طرابلس فى لبنان فاطمة محمد محيى الدين اليوسف.. أو فاطمة اليوسف.. أو « روزاليوسف » ..

لقد ماتت أمها « جميلة » عقب ولادتها مباشرة ، فربتها أسرة مسيحية فى غياب الأب الذى كان تاجرًا دائم السفر .. واختارت الأسرة المسيحية لها اسم « روز » للتدليل ..

فلم تعرف فاطمة اليوسف فى طفولتها التعصب .. فهى مسلمة تربت فى بيت مسيحى .. هى فاطمة وروز معًا .. تقرأ القرآن أمام صورة العذراء .. وتصوم رمضان وتحتفل بالكريسماس ..

لقد اختفى أبوها .. سافر ولم يعد .. انقطعت أخباره .. ونقوده .. فبدأت الأسرة البديلة تشعر أنها عاجزة عن إطعام الصبية .. وفى يوم زارها صديق للأب ودعاها للهجرة معه إلى البرازيل .. ووعدته أن تلحق به .. وركبت من ميناء صيدا سفينة لم تحملها إلى البرازيل ، وإنما إلى الإسكندرية ، حيث انضمت إلى أسرة إسكندر فرح ، وانضمت إلى فرقته المسرحية .. وبدأت مشوارها الفنى حتى أصبحت سيدة المسرح الأولى فى مصر .. وعندما اعتزلت لم تفكر فى أن تفتح مطعمًا أو معهد تجميل أو أتيليه للأزياء .. وإنما قررت أن تفتح مجلة .

يقول د . إبراهيم عبده وهو يؤرخ لـ « روزاليوسف » السيدة والمجلة : إن الفصل بينهما كالفصل بين الروح والجسد .. « لأن فاطمة اليوسف لم تكن امرأة ثرية ، عُرضت عليها فكرة إنشاء مجلة فأعجبتها وأمدتها بالمال ، بل إن فكرة إنشاء المجلة من وحيها ، وكذلك كان اختيار المجلة ومحرريها » .

كانت روزاليوسف فى ذلك الوقت منفصلة عن زوجها الأول المهندس عبد القدوس . بعد أن انجبت منه فى يناير ١٩١٩ الكاتب الصحفى إحسان عبد القدوس . ولكنها خرجت فى مظاهرتها فى أواخر سنة ١٩١٩ بين شهرى أغسطس وأكتوبر . وكانت فى نفس الوقت قد تركت فرقة (يوسف وهبى) وعملت

فى فرقة الريحانى ولكنها لم تنجح حيث كان أداؤها تراچيديًا والفرقة لها طابع كوميدى مميز ووجدت نفسها تغالى فى الحشمة فتلبس على وجهها يشمك وتدثر جسدها بعباءة سوداء فاحمة وتتجه إلى بيت الأمة لتقابل صفية زغلول والنساء .. هل فعلت ذلك بحثًا عن دور يناديها أو لاكتشاف هذا العالم الخفى عنها فى دنيا النساء !!

وبالرغم من أنها تعرفت على كثيرات من المعجبات بها ورحبن بها . إلا أن صفية زغلول عاملتها بتحفظ وكأنها فى كل نظرة لها تسألها لماذا جأت ؟!

وتقابلت هناك مع : حرم محمود رياض باشا - حرك الدكتور إبراهم المنياوى - حرم محمد بك علي المحامى - حرم حسين بك نبيه - حرم السيد حسن صابر وكلهن أزواجهن أعضاء فى الوفد . وشعرت بالغربة أنها لا تملك إلا اسم أبيها الذى تركها ولم يعد .

ثم تعرفت على نساء أخريات أعتقدت أنهن مثلها سافرت الاسم ولا يضعنه خلف الحجاب ولكنها اكتشفت أنه نفس الحجاب بطريقة أفرنكى : هدى شعراوى . منيرة علوى باشا . عنايات سلطان باشا - فايقة رفيق بك فتحى .

وفهمت نظرات صفية زغلول القلقة لها .. فالمسألة زيت فى دقيق . حزب الوفد وأعضاء الوفد وهوانم الوفد زوجات الأعضاء فأين مكانها ؟! ولكنها استراحت للطقس الجديد التسامح الجميل بين الهلال والصليب إنه جو يسمو حتى على ما يحدث فى الفن ، وأعجبها عبارة « الدين لله والوطن للجميع » فقد عانت من أثر الخلاف الدينى حينما ضمها الفنان (عزيز عيد) لفرقته وعند التحاقها فى البداية بجورج أبيض . واستمعت لهذا الحوار بدقة وتركيز .

هدى شعراوى : لو كان للحزب جريدة لاستطاعت أن تشعل الدنيا ضد الإنجليز ونفى الزعيم سعد زغلول .

عنايات سلطان باشا : لماذا لا نبدأ الأن إن التمويل متوفر وأنا مستعدة لتكاليف الأعداد الثلاثة الأولى .

صفية زغلول : لقد رفض سعد زغلول أن تكون أى جريدة لسان حال الوفد . لأنه يرى أن الوفد هو الأمة كلها . فهو يرى أن الصحف يجب أن يمتلكها أصحابها لا يمتلكها الحزب . ويكون بعد ذلك للجريدة حرية مناصرة الحزب حتى تكون حرة فى التعبير عن رأيها .

حرم محمود رياض باشا وكأنها تغير الموضوع بعد أن حسمته صفية زغلول : فاطمة هانم إن محمود باشا معجب بمظاهرة الفن لمناصرة سعد زغلول ولكنه يراها (فانتازيا) لاهية - فما معنى تأييد الثورة فى الصباح ثم تذهبون لتمثلوا مسرحيات « يا ستى ما تمشيش كده عريانه » و « خللى بالك من أميلى » - أين المسرحيات الوطنية التى تؤيد الثورة وتطالب بالاستقلال - هذا دوركم الأساسى .

واستأذنت منبهرة (فاطمة يوسف) لقد قلن لها فاطمة هانم وقد عقدت العزم على بعض الأشياء : مناصرة الوفد . عدم الاشتراك إلا فى مسرحيات وطنية - التفكير فى جريدة مستقلة بتوجه سعد زغلول ومقابلة الناقد الفنى «محمد التابعى» لتفهم منه معنى عبارة : فانتازيا لاهية !!

لقد كانت روز اليوسف كما يصفها مصطفى أمين « جريئة لا تخاف . إذا أقدمت لا تتراجع . وإذا هاجمت لا تعتذر . وإذا وقفت على الأرض رفضت أن تسلم سلاحها ، ومع ذلك كانت امرأة ساحرة جميلة كلها أنوثة وكلها جاذبية ، وكلها حنان » .

وتقابلت مع أمير الصحافة التابعى وتحدثا . كان التابعى وقتها سعيداً جداً بما نشر فى جريدة الأخبار - وهى ليست الأخبار الحالية وإنما جريدة أخرى صاحبها أمين الرافعى أحد المشاركين فى ثورة ١٩١٩ - كان يقرأ :

[إن سعد باشا قدم مذكرة إلى المستشار الملكى المسيو بيولاكازيللى تتضمن عدة اسئلة عما إذا كانت الصحف لا تزال خاضعة لضرورة استصدار إذن قبل ظهورها وما هى الطرق الإدارية التى تتخذ لإلغاء صحيفة أو إيقافها أو إنذارها ؟ والغريب أن الجريدة قالت إن إجابة المستشار الملكى عن الأعمال الداخلية للوزارة هى مما لا يهم

الجمهور ، لذلك اكتفينا بذكر الأسئلة وإن كانت قد أضافت بأن المستشار الملكى قال إنه لا خلاف فى أن سن قانون جديد للمطبوعات أمر ضرورى] .

وتأكدت نية روز فى إصدار جريدة ولكن أى نوع من الجرائد ؟!

فهناك روايتان الأولى : ذكرتها د. إيمان عامر (مدرس التاريخ الحديث بجامعة القاهرة)(وهى ترى أنها جريدة سياسية اتفقت عليها مع التابعى ولكنها عند حصولها على ترخيص حصلت على ترخيص مجلة سياسية .

وصورت روز نفسها كفنانة قضت عليها الظروف بأن تقف متفرجة على العجيب المدهش مما يمثل فى مسرح السياسة وقد شملتها الرغبة القوية فى اعتلاء خشبة هذا المسرح الجديد وعندما عرضت الفكرة على الأستاذ التابعى وطالبته بأن يشاركها اعتلاء خشبة المسرح ولو بصفتها كومبارس ، رفض الفكرة فى البداية غير أن الفكرة فى ذهن روز اليوسف استمرت تلح عليها ، وكان إعجابها بسعد زغلول له تأثير كبير فى تحولها هذا ، فهو كما وصفته تحول من شخصية ممتازة إلى فكره ومن فكرة إلى عقيدة وطنية .

وكانت مجلة الكشكول فى تلك الفترة فى عنفوان جبروتها ، وفى مقال لروز كتبت « كنت كلما قرأت الكشكول وهو ينال من سعد العظيم ، أقضى ليلة مزعجة ، إذ كنت أعتقد - كما أعتقد الآن - أن من يجترئ على سعد بالباطل إنما ينال من حقوق الوطن » .

واستطاعت روز أن تحصل على رخصة سياسية للمجلة وأصبحت مجلة سياسية دخلت ميدان السياسة وحيدة لا يسندها حزب ولا يمولها حاكم ولا يدبج لها المقالات كاتب سياسى قديم .

وتؤكد ذلك هدى التابعى حرم محمد التابعى في اعترافاتها النارية مع الصحفى حنفى المحلاوى والتى نشرها فى كتاب فهى تؤكد أن الحياة العاطفية عند التابعى ارتبطت بحياته الصحفية وأنه ارتبط عاطفيًا وباعترافه بثلاثة شهيرات : فاطمة اليوسف - اسمهان - أمينة البارودى .

وأن فاطمة يوسف فى مرحلتها الفنية الأخيرة - وقبل الاعتزال - ارتبطت بالتابعى من خلال عمله في النقد الفنى والمسرح بالذات وكان يكتبه تحت اسم (حندس) وحينما تفاقمت مشاكله مع فاطمة رشدى حتى أنها اعتدت عليه بالضرب (بالشبشب) !! . وجه اهتمامه للمثلة الفاتنة فاطمة يوسف وأطلق عليها (لولو) حتى عرف بعد ذلك العاملين فى مجلتها روز اليوسف (بحزب لولو) واستمر معها عاطفيًا وصحفيًا من عام ١٩٢٠ حتى ١٩٣٣ وقتها جاء الانفصال الرسمى .

وأنها استغلت الحالة العاطفية بينهما فى نقل طموحاته من الكتابة الفنية إلى الكتابة السياسية - وأنه عند بداية الكتابة السياسية معها كان يكتب بغشم وبقلم انتحارى ومن أجل طموحاتها تعدد دخوله السجن بسبب كتاباته ، وأنها أفهمته بأنها تصدر المجلة من أجله !!

أما الرواية الثانية : فتقدر أنه فى أواخد ١٩٢٣ وقد جمعت موائد (كساب الحلوانى) ومكانه الأن سينما ديانا . كلاً من روز اليوسف وإبراهيم خليل وزكى طليمات وآخرون . نادى البائع على مجلة (الحاوى) وهى تحمل نقدًا فنيًا لاذعًا للمسرح المصرى - فاقترحت روز عمل مجلة فنية تقاوم هذا الغش الإنسانى والشخصى وتسموا بالأعمال المسرحية وتدعو لمسرح المقاومة للوقوف مع سعد زغلول . ووافقوا على أهمية هذه المجلة . ويؤكد مطفى أمين[1] هذا الرأى وهو الذى اشتغل فى روز اليوسف فى بدايات عمله الصحفى فهو يقول قالت لى مرة روز اليوسف وهى تضحك : أنها أصدرت مجلتها وهى لا تريد إلا أن تهاجم يوسف وهبى صاحب الفرقة التى كانت هى ممثلتها الأولى !! فهى لم تنسى ما قاله لها من أنه هو التاريخ وبغيره ينساها الناس فأرادت أن يكون اسمها على مجلتها للأبد وأن تكون مجلتها فنية !! فإنها لم تتحول للسياسة إلا فى وقت عزل سعد زغلول من الوزارة وصدرت المجلة وكانت المعارضة الأساسية من الجميع بما فيهم التابعى . اشتراط روز اليوسف أن تحمل اسمها .

(١) السبب فى ذلك ان يوسف وهبى رفض أن يعطيها دور فتاة عمرها ١٨ سنة فى رواية الذبائح وأعطى الدور لممثلة ناشئة فى ذلك الوقت اسمها « الآنسة أمينة رزق » .

وتقول روز اليوسف عن ذلك فى مذكراتها :

« عجبوا إذا أسميت صحيفتى باسمى وقالوا نزعة إلى الشهرة !! أيه شهرة !! الطبل العزاف إننى منه فى صمم ، ولم العجب أليست صحيفتى شعبة من نفسى ؟!

وقد احتج على الاسم « التابعى » و « عباس العقاد » واحتج الوفد بعد أن اصبحت المجلة سياسية ثم قبل الجميع بهذا الاسم .

ولم يكن الرفض للاسم فقط بل الرفض لأن صاحبة المجلة سيدة وفنانة ، وحتى أن العقاد رفض فى البداية أن يكتب فى مجلة « تملكها سيدة » .

حتى بعد أن نجحت المجلة وانتشرت وأصبح لها جمهورها ، كان هناك بعض من هذا الجمهور يخجل من أن يصرح بأنه يطالعها ، فقد ذكر أحد المتصلين بروز اليوسف أنه صادف أحد النواب يقرأ مجلة يبدو من غلافها أنها مجلة « النواب » وبدا انه يضع شيئًا آخر داخل المجلة فإذا به مجلة « روز اليوسف » وعلق البعض على ذلك بأن النائب المحترم لا يريد أن يعرف الناس أنه يقرأ مجلة روز اليوسف ، ربما لأنها مجلة تحمل اسم سيدة !!

غير أن المتناقشين طرحوا تساؤلاً هل لو كانت المجلة تحمل اسم هدى شعراوى أو نبوية موسى فهل يجد النائب المحترم حرجًا فى قراءتها علنًا ؟! ربما لا ، إذن فالسبب أن المجلة تحمل اسم فنانة » .

وشعر الوفد بأن روز اليوسف مجلته – واشتهر اسم روز اليوسف ولمع سياسيًا ويحكى عن ذلك إحسان عبد القدوس :

« وحصل مرة أن مندوب مجلة روز اليوسف في الإسكندرية مرض فكلمتنى والدتى فى اسكندرية وكنت لسه طالب ثانوى وقالت لى روح لوكاندة ولسون هتلاقى الوزراء قاعدين هناك هات لى منهم أخبار .. كان عندى لسه ١٧ سنة ، رحت اللوكاندة ولقيت فعلاً هيكل باشا قاعد والوزراء كلهم قاعدين ، فقلت لهم ماما بتسلم عليكم وبتقولكوم هى عايزة أخبار ، وطبعًا أدونى فعلاً أخبار وقعد الوزراء أنفسهم يساعدونى ووالدتى انبسطت قوى » ..

واشترك كل أعضاء الوفد فى مجلة (روز اليوسف) إلا سعد باشا زغلول - إنه يعرف أخبارها من أعضاء الوفد ويسأل عنها فى بيته ولا يجدها ولا يصدق أن روز اليوسف وفدية أكثر من الوفد نفسه . وتتعجب روز أن زعيم الوفد لا يحدثها عن مجلتها بل إنه لا يدفع الاشتراك مع أنها بنفسها تتأكد من وصول المجلة لبيته ؟! واستمر السر غامضًا حتى عمل مصطفى أمين فى مجلة (روز اليوسف ١٩٣٠) واعترف لها بأنه هو السبب فقد كانت المجلات والجرائد تصل للمنزل فتتصفحها (صفية زغلول) وأحيانًا تضع خطوط تحت بعض الأخبار ليهتم بها زوجها سعد وكان على أمين ومصطفى أمين ينتظرا أن تفرغ من ذلك - فإذا تركت الصحف على مكتب الزعيم دخلا لحجرته وأخذا (روز اليوسف) واختفيا بها .. فقد كان إعجابهما بالتابعى لا ينقطع !!

وتنهدت روز اليوسف وكأن حجرًا ثقيلاً تزحزح من قلبها وأمسكت بتلابيب مصطفى أمين فقد حرمها من أن تعيش أحلا اللحظات فى حياتها بوصول كلمتها للزعيم وبحديثه معها . وبسرعة أظهرت كرمًا نادرًا ووزعت مكافأة على العاملين بالمجلة .

وتأثر مصطفى أمين فأصطحبها لضريح سعد ولبيت الأمة وأخذتها صفية زغلول بالأحضان فهى التى قرأت كل ما كتبته وعرفت كل ما قدمته مجلتها (للوفد) ونظرت فى عيناها .. ولم تجد (روز اليوسف) نظرات الشك والريبة التى وجدتها فى زيارتها الأولى . تغيرت العيون فشعرت بتغير القلوب .. ولم تجد أحد ينتقدها وإنما وجدت منيرة ثابت تقبلها وتفاجئها بأنها حفرت فى تاريخ المرأة طريقًا باسمها .

وقالت لها أنها تبنت ما نادت به وحدثت عنه وزير المعارف .. فقد رأت روز اليوسف أنه لابد من حصول المرأة على تعويض مالى مناسب بعد الطلاق نظرًا للأضرار الاجتماعية التى تنجم عن تلك الحالة وخاصة إذا كانت الزوجة عاملة لأن قانون العمل وبالذات فى مهنة التدريس - فى تلك الفترة - كانت تفرض استقالة المدرسة عند الزواج فإذا طلقت فإنها بذلك تخسر عملها وزوجها فلابد من حصولها على تعويض مالى يناسب تلك الخسائر ويقدرها القاضى .

ولم تنسـحب روز اليـوسف هذه المرأة وإنما قـالت لمنيـرة ثابت : والفنانة التي تعمل بجد واجتهاد ماذا يحدث لها إذا تزوجت أيضًا . بل إذا ضاعت منها صحتها . قوللى أين أذهب يا منيرة هانم !! الفنانة امرأة عاملة كالفلاحة والمدرسة .

وحينمـا ارادت الانصـراف إذا بأم المصـريين تنتـفض قـائلة : مـابدرى خليكى قاعدة شوية ما بدرى يا ست روز !!

ويقول مصطفى أمين وعند انصرافها كان فى داخلها ألف رجل !!

وانعكس ذلك فى كتاباتهـا : فعندمـا عقد المؤتمر النسـائى العـربى عـام ١٩٤٤ لتوحيد جهود المرأة الشرقية وتقرير حقوقها المدنية والسياسية ، دعت هدى شعراوى روز اليوسف لحضور حفل شاى فى دارها للمشتركات فى المؤتمر الشـرقى وكتبت روز اليوسف تحت عنوان « ثلاث ساعات بين الهوانم والمدموازيلات » :

« ذهبت إلـى الحـفلة بعـد تردد دام طويلاً ، إذ كـانت هذه هى المرة الأولـى التى احضـر فيها اجتماعًا نسائيًا صرفًا .. وكان على أن اتأبط كمية من « نون النسوة » لأتمكن من وصف الحـفلة ، على فـرط مـا بينى وبين نون النسـوة من سـوء تفـاهم شديد .. والحق على صاحبة الجـلالة الصحافة التى جعلتنى غريبـة على إجتمـاعات بنات جنسى فلست أنكر أننى كنت فى هذه الحفلة أشبع الأشيـاء بالفضولى يندس بين مدعوين لا يعرفونه ولا يعرفهم » .

وكتبت فى وصف آخر للمؤتمر على الخطبة التى ألقتها إحدى عضوات المؤتمر عن مأساة فلسطين فلم تتحمل المدعوات سماع هذه الخطبة الفياضة فـأصبحن بين أمرين إمـا أن يطلقن العنان لدموعـهن فـتتلفن التـواليت وإمـا أن يتـجلدن لإنقـاذ مـا يمكن إنقـاذه « ولكن ترددهن لم يطل فـانبـعثت الدموع من أعينهن وأمسكن بالمناديل يلتقطن الدموع التقاطًا قبل أن يختلط الأحمـر بالأبيض » .. هكذا وصفت روز وقائع المؤتمر وكأنها تراه بعينى رجل .

ويبـدو أن مهنة التمثيل كان لها تأثيـرها على خيـالاتها وكتاباتها فكان يحلو لها أن يرسم لهـا رسم كـاريكاتيـرى فى المجلة وهى بملابس الرجـال . فـفى أحد أعـداد

المجلة نشرت لنفسها كاريكاتيرًا وهى ترتدى الجبة والقفطان والعمامة وكتبت تحتها « الأستاذة روز اليوسف » الأمر الذى أثار عليها بعض الأزهريين فأرسلوا إلى المجلة يحتجون على هذا الرسم باعتبار أن العمامة « هى تاج الأزهر والإسلام » وأنهم لم يروا حتى القرن العشرين سيدة ترتدى العمامة ، فأوضحت روز أنها إنما أرادت المبالغة فى توضيح فكرة الأستاذية بعد أن طلبت من أصدقائها استبدال كلمة « الست » بلقب « الأستاذة » وقد حدث ذلك عندما علمت بتصريح سعد زغلول إلى عدد من المتصلين به بأنه معجب بالمجلة « ذات الدم الخفيف » فتملك روز زهو شديد بنفسها ونشرت هذا الرسم واستخدمت هذا اللقب .

وفى مرة أخرى نشرت رسمًا لها وهى ترتدى بدلة وطربوشًا وتمسك بالعصا ، وجاء هذا الرسم فى مقال للاحتجاج على أن كونها سيدة يمنعها بحكم العرف والتقاليد والبروتوكول من الحصول على الباشوية ، واعتبرت روز اليوسف أنها جاهدت وأدت الخدمات للبلاد بينما هناك من السيدات « وتقصد زوجة النحاس باشا » حصلن على ألقاب الشرف لمجرد زواجها من أحد العظماء فكتبت « وليس الزواج فيما أظن في قائمة التضحية والجهاد ، فحرم النحاس باشا التى نالت أرفع الأوسمة شأنًا مع أنها لم تخرج من دارها إلا للنزهة وشم الهواء ، أو للسفر إلى الخارج طلبًا للراحة من عناء شم الهواء !! أما زواجها برفعة النحاس باشا ، فعمل ليس وطنيًا فيما أعلم ولا حساب له إلا عند الله !! فكيف تفضلنى عند تقدير الجهود وكيف تسبقنى إلى ما أنا أحق منها به ؟! » .

ولا أقصد بما عرضته أن روز اليوسف كانت بمعزل عن قضايا المرأة ومشكلاتها ، فحول الموضوع القديم الحديث : هل يصح للمرأة أن تشارك الرجل عمله وتقاسمه ميدان العمل ؟! كتبت عن نابليون عندما سئل « أى حصون فرنسا أمنع ؟ فأجاب : المرأة الصالحة » وقسمت روز اليوسف الرجال لثلاثة أقسام : القسم الأول يدرك حقيقة الحياة التى أصبحت قاسية وظالمة فلم يعد يرى غضاضة فى أن يتخذ من كتف المرأة سلمًا يطل منه علي الحياة وأن تمهد له سبل الارتزاق ، وقسم ثان زاد اعتزازه برجولته عن المقدار المقرر فى روشتة الحياة فعد المرأة ضعيفة

عاجزة ونسب لها القصور والتقصير وجرى فى الحياة لمساعدة هذا الجنس الضعيف العاجز الذى تضمه جدران البيت الأربعة ، وقسم ثالث وهو الذي يقدر المرأة ويعرف لها جانبها الخطير فى الحياة ويعمل من جانبه لمساعدة المرأة فى هذا الواجب الكبير فإذا أبعدنا وأسقطنا القسم الأول حيث إن إنكاره خير من الاعتراف به والتغاضى عنه أفضل من إثباته بقى لدينا القسمان الثانى والثالث ، ونظرة سطحية تكفى لأن نقول إن الكثرة الغالبة يضمها القسم الثانى أما الثالث فهو قليل نادر .

ورفعت روز اليوسف دعوتها : « ابحثوا عن الرجل قبل كل شىء وضبوه فى القالب الطلوب ثم تكلموا عن المرأة ما شئتم لأن واجبها إذا قامت به على أتم الوجوه لأعدت أمة أصلها ثابت وفرعها فى السماء . ولكن لو عرف الرجال واجبهم وقدروا المرأة وعملها !! أقول لو !! » ..

وسارت المجلة تضرب فى بحر السياسة بينما كانت صاحبتها فى باريس ، واحتجت السلطات على بعض المقالات التى رأت فيها مساسًا بأصحاب المناصب ، الأمر الذى أدى إلى القبض على المدير المسئول وإيقاف المجلة عن الصدور لمدة تزيد على الشهر مما دفع بعودة صاحبتها من باريس التى عادت فوجدت بحر السياسة هائجًا مزبد الموج فلم تتردد فى أن تصد العدد ١٢٠ يحمل اسمها بصفتها المديرة المسئولة عن سياسة المجلة .

وازدادت ضراوة الحرب بين « روز اليوسف » و « الكشكول » وعندما قامت الأخيرة بمهاجمة زوجة مكرم عبيد لم تتردد روز اليوسف فى الكيل للكشكول من نفس الوعاء يدفعها فى ذلك عاملان على حد تعبيرها : عامل الحزبية وعامل الغيرة على واحدة من بنات جنسها ، وكان أن تقدم سليمان فوزى صاحب « الكشكول » بشكوى ضدها ، وفى تحقيق النيابة دفعت ضريبة نزولها ميدان العمل الصحفى عندما سألها المحقق : بتشتمى ليه حرم سليمان أفندى ؟ أجابت : هو كمان بيشتمنى وأنا كمان حرمه . أجاب المحقق : أيوه لكن أنت حرمة عمومية . وعندما بدأ على

روز التأثر من كلمة عمومية ، سارع المحقق قبل أن تبدى اعتراضها واعتذر وأوضح لها أنه يقصد أنها صحفية وشخصية عامة .

ولم يكن دفاعها عن زوجة مكرم عبيد هو الذى أوضح ميلها للوفد فقد كتبت روز اليوسف بمناسبة حادث من أبرز حوادث التاريخ المصرى الحديث واعتبرته « روز » أول عمل تقوم به فى الصحافة السياسية وذلك من خلال محاكمة أحمد ماهر والنقراشى بتهمة تكوين عصابة قامت باغتيال السردار وغيره من الإنجليز وكان الدفاع يقوم به عدد كبير من المحامين الوفديين على رأسهم مصطفى النحاس وكان الإنجليز يبغون دمغ الوفد كله بالتآمر والجريمة بإدانة عضوين بارزين فيه ، وحضرت روز جلسات المحاكمة وكتبت عنها فى مجلتها وعندما ظهرت براءة المتهمين اقتربت من قفص الاتهام لتصافحهما مهنئة .

وفى سنة ١٩٢٦ هبط توزيع المجلة إلى خمسمائة نسخة أسبوعيًا منها ١٥٠ نسخة اشتراكات وذهبت روز اليوسف للتابعى تسأله : هل سعد زغلول غاضبًا علينا !؟ وسألها التابعى : وما علاقة التوزيع بسعد زغلول !؟ وإذا بها تذكره بشئ .

وقد كان أمين الرافعى صديقًا حميمًا لسعد زغلول ، واشترك فى ثورة ١٩١٩ وكان يصدر جريدة « الأخبار » وكانت الجريدة تعتبر لسانًا من ألسنة سعد زغلول . ثم حدث أن اختلف أمين الرافعى مع سعد زغلول فى الرأى السياسى ..

وكانت جريدة الأخبار قد وصلت فى توزيعها أن أصبحت أوسع صحف مصر انتشارًا ! كانت توزع فى تلك الأيام حوالى الخمسين ألف نسخة !

ولم يصدر سعد زغلول قرارًا بمقاطعة الجريدة .. كل ما فعله أن قال فى إحدى خطبه « أنا لا أقرأ جريدة الأخبار » !

وفى اليوم الثانى هبط توزيع الأخبار من خمسين ألف نسخة إلى ثلاثة آلاف نسخة !

وطمأنها التابعى فهو لم يسمع شيئًا يسوء فى العلاقة بين المجلة وبين الوفد ثم أن الاشتراكات كلها من أعضاء الوفد وهى مستمرة وتزيد !!

لم تكتف السيدة روز اليوسف بنجاحها الصحفى ، بل عاشت تتمنى عودتها إلى أضواء المسرح ، وقاومت أصدقاءها ومحرريها الذين عارضوا أن تظهر على المسرح تمثل أدوار الحب والغرام بعد أن أصبحت صاحبة أكبر مجلة سياسية فى مصر ، ولكنها بعنادها وإسرارها تحدت الجميع وظهرت ليلتين متواليتين على مسرح الأزبكية فى دور مارجريت جوتيه العاشقة فى مسرحية « غادة الكاميليا » ، وذلك لصالح المنكوبين فى حريق هائل فى قرية محلة زياد ، ونجحت الصحفية فى دور الممثلة ، كما نجحت الممثلة فى دور الصحفية ، ثم فكرت فى أن تمثل فيلمًا فى السينما فى أول دخول الأفلام الناطقة إلى مصر ، وأجرت تجربة سينمائية لم تعجبها لأنها بدت عجوزا ، وكانت تريد وهى فى الخمسين أن تمثل دور فتاة صغيرة!

ولكن روز اليوسف مع كل هذا لم تصل إلى صدارة المجلات السياسية ، وفجأة تولى محمد محمود باشا الحكم وبدأ عهده بمصادرة روز اليوسف ، ودوى النبأ كالرعد فى مصر ، فقد كانت أول مجلة تصادر فى عهد الدستور ، وكتبت الصحف عن المصادرة وخطب النحاس باشا رئيس الوفد محتجًا على مصادرة روز اليوسف ، وأطلق كتاب الحكومة على الوفد « حزب روز اليوسف » وخطب النحاس وقال : « نعم نحن حزب روز اليوسف » .

وكانت المصادرة نعمة وبركة على المجلة فتضاعف توزيعها ، وزاد انتشارها ، وأصبحت لأول مرة المجلة الأولى فى مصر ، وصمدت روز اليوسف للتهديد والوعيد والتعطيل والمصادرة والتنكيل ، وفي كل يوم تقوى روز اليوسف وتضعف الصحف والمجلات التى اختارت السلامة ، ولا تخرج من معركة إلا لتدخل معركة ، ولا تنجو من أزمة إلا وتقع فى أزمة أشد وأخطر .

وكانت روزاليوسف امرأة ضعيفة فى أيام النعمة ، وامرأة قوية جبارة شرسة فى أيام النقمة ، كانت كالوردة البيضاء فى أوقات الرخاء ، وكالخنجر المسموم فى أوقات الشدة متعتها أن تحارب ولا تستسلم ، أن تندفع ولا تتراجع ، أن تضرب ولا تجرى وكانت شجاعتها النادرة تثير الحماس في كل من حولها ، فيقف

القاعد ، ويتحرك الساكن ، وينطق الأخرس ، ويقدم المتردد ، ويطمئن الخائف ، ويتشجع الجبان .

ويدأ إحسان عبد القدوس ابنها يطل بقلمه السياسى مندفع بخيال الأدباء وثورة السياسين ، وأصبحت المجلة لا تهلل لكل ما يفعله الوفد بل تنتقد وتوجه . وتطرقت روز اليوسف لحرم النحاس باشا وأصرافها وسيطرتها .

وقام خلاف بينها وبين الوفد . وحاول النحاس باشا أن يقنعها بأن تلتزم بسياسة الوفد ، فعاندت ورفضت أن تتزل عن حريتها في نقد الحكومة ، واجتمع الوفد وقرر التبرؤ من جريدة روز اليوسف وأصدر أمر إلى لجانه بمقاطعتها ، وجاءت المظاهرات الحاشدة إلى دار الجريد تهتف بسقوطها ، فخرجت إليهم وحدها واندفعت تهتف بسقوط النحاس .

وتلقت اللعنات والشتائم ، فتصدت لها وأبت أن تتراجع أو تخضع أو تركع أمام غضب الجماهير .

ودخل إحسان ابنها السجن عن مقالاً ضد « اللورد كيلرن » سفير الإنجليز وقتها فى مصر وكان له سلطانه ومهابه كان العنوان « هذا الرجل يجب أن يذهب إنه بطل حادث ٤ فبراير » وهذا الحادث هو الذى آتى بالوفد على رأس الحكومة فى أيام الملك فاروق . وكان رئيس الوزراء وقتها صديقًا (لروز اليوسف) فقال لها : أنا اسعى للمفاوضات وإحسان يريد أن يوقف هذه المفاوضات . وقالت روز : يسجن ابنى ولا يرجع فى رأيه !! ولم يسجن وقتها إحسان .

ولكنه سجن لأول مرة عام ١٩٤٥ . فى عصر الثورة !؟

وفى ١٥ مارس ١٩٥٤ كتب « إحسان عبد القدوس » ضد الثورة ضد الجمعية السرية التى تحكم مصر ودفع إحسان ثمن مقاله . ودخل السجن .. واتهم أيضًا هو وأمه « فاطمة اليوسف » وزوجها قاسم امين مع ٢١ صحفيًا آخر بأنهم يتقاضون المصروفات السرية .. وقال صلاح سالم فى احتفال بتوزيع الأراضى على الفلاحين « إن الصحافة تنادى بالحرية والديموقراطية ليأخذ الصحفيون باسم الحرية المصاريف السرية » ..

والمصـروف السـرى ، هو أسوأ اتهام يمكن أن يوجه إلى صـحـفى .. وكـانت تلك تهمة أخطر من التهمة التى وجهت رسمياً لإحسان عبد القدوس وهى « العمل على قلب نظام الحكم ، أو كما قال الأستاذ إحسان بعد أن خرج من ثلاثة أشهر حبساً فى السجن الحربى ، بينها شهر انفرادى ، فى مقالة « ٩٥ يوماً فى السجن » « إنها أخطر تهمة يمكن أن يتعرض لها مواطن » .

بعد أن خرج إحسان من السجن استدعاه عبد الناصر لتناول الطعان معه ، وظل طـوال شهر كامل يدعوه ليشاهد معه فيلماً سينمائياً .. ويقـول له انـه كان « يربيه » .

وقالت روز لابنها إحسان عبد القدوس : إذا كان يريد أن « يربيك » فهذا معناه أنه يعتقد بوفاة أمك - فكيف أتعامل مع من يعتبرونى في القبر !!

واعتزلت روز اليوسف فى منزل العائلة الكبير فى كفر الشيخ ومعها زوجها حفيد قاسم أمين الذى تزوجها وكانت تكبره بـ ٣٠ سنة ويقول لها : ماما روز !!

وأغرب ما فى قصة هذه المعجزة ، أنها وهى صاحبة أكبر مجلة سياسية فى البلاد العربية لم تكن تعرف كيف تكتب ، كانت توقع إمضاءها بصعوبة ، وكان خطها أشبه بخط طفل صغير ملىء بالأخطاء ومع ذلك فقد كانت قارئة ممتازة ، وذواقة رائعة ، تقرأ المقال فتعرف على الفور إذا كان يستحق أن ينشر في الصفحة الأولى ، أو يلقى به فى سلة المهملات ، تقرأ الخبر فتفرق بين الماس الصحفى والزجاج الصحفى ، هوايتها اكتشاف المواهب الشابة ، ودفعها إلى الأمام ، قادرة أن تحول اليأس إلى أمل ، والكسل إلى عمل ، والخمول إلى انطلاق !!

* * *

الفصل الخامس

سـفـر التـرويح

يا بلح زغلول ..
يـا حليـوه يـا بلـح !!

منيرة المهدية

١٨٩٠ - ١٩٦٥

وكان « سعد زغلول » من حين لآخر يختلس الوقت ليروح عن نفسه وعقله ، وكان يميل إلى سماع الأغانى من جيل عبده الحامولى ومحمد عثمان وسلامة حجازى ، كما كان يقرأ الشعر ويحفظه خاصة « المتنبى » و « المعرى » ..

وذات يوم قرر « سعد زغلول » أن يذهب إلى المسرح لمشاهدة مسرحية تقوم ببطولتها الفنانة المطربة الكبيرة منيرة المهدية ، وحرص على كتابة ما شاهده فى مذكراته بتاريخ ٢٤ نوفمبر ١٩١٧ فيقول :

« دعانى أمس اسماعيل صدقى إلى تياترو « برانتانيا » لحضور تمثيل رواية كارمن .. بواسطة جوقة منيرة المهدية ، ودعا معى عدلى باشا وثروت باشا وقد كان التياترو على سعته ، غاصًا بالمتفرجين ، والألواج مملوءة جدًا ولكن أغلبهم كانوا من الطبقة الوسطى والدنيا .

ومنيرة المهدية فنانة فى الثلاثين من عمرها ، خمرية اللون رشيقة القد ، مليحة الوجه ، خفيفة الروح ، رخيمة الصوت وطويلة النفس ، وتمثيلها لا بأس به كما لا بأس ببعض أفراد الممثلين معها . وقد رأيت التمثيل تقدم عن ذى قبل كثيرًا ، ولكن الشعب لم يتهذب بعد ، ولم يترب فيه ذوق هذه المشاهد ، فهو يصفق لما يجب السكوت عنده ، ويسكت لما يجب له التصفيق ، ويضحك عندما يلزم البكاء ويسكت بعضه بعضًا فيكون لإسكات أدعى للجلبة من التشويش .

وقد لبثت إلى ما قبل الفصل الأخير وانصرفت مع عدلى (يكن) وبقى صدقى وثروت بعد أن خرجا معنا ، بحجة انهما يريدان السير على الأقدام ، ولكن يظهر من حالتهما أنهما كانا يريدان أمرًا آخر .

ولقد تحدث الناس بوليمة صنعها زوج « منيرة » المذكورة لثروت باشا ، وبعض القضاة والمحامين ، وانتقدوا الوزير انتقادًا مرًا . ولقد قيل إلى ثروت : إن سرى

باشا يقول أن منيرة هذه ليست حميدة السيرة فاكفهر وجهه واحتقن وعلاه الكدر وقال : على ذلك سيرفض الإذن فى التمثيل فى الأوبرا السلطانية » .

ويحكى أنه عندما كانت « صفية زغلول » تستقبل فى بيتها صديقاتها والمقربات منها ، لم يكن سعد زغلول يخرج لملاقاتهن ولاحظت إحدى صديقات صفية هذا الأمر ، وتذكرت الشائعة التى انتشرت لفترة أن « سعد زغلول » تزوج من أخرى فسألت هذه السيدة صفية بفضول شديد :

- هل صحيح ان لزوجك سعد باشا بيت آخر وقرينة أخرى كما يقال !؟

وبكل جدية ترد صفية زغلول :

نعم له زوجة أخرى ولكنها فى هذا البيت .. !! أنظرن ، سأريكن إياها وأسمعكن أسرار « سعد » معها فى هذه اللحظة !!

وتزداد دهشة السيدة ويتملكها حب الفضول والاستطلاع من جواب « صفية » وتنهض الصديقات لرؤية « ضرة « صفية » ، وتكون المفاجآت فى جلوس « سعد » منكباً على مكتبه بين أوراقه وكتبه يقرأ بصوت جهير على عادة الأزهريين ، وإلى جانبه سرير أعد للنوم إذا تأخر به الدرس إلى هزيع الليل الأخير .

وتسأل « صفية » صديقاتها :

- أسمعتن !؟

- نعم ولكن أين الزوجة !؟

وترد « صفية » : الزوجة هى هذه الأوراق ، وهى الضرة التى سمعتن بها !؟

وفجأ وقبل انصرافهن يسمعن صوت جرمافون يصدر منه صوت يغنى « أسمر ملك روحى يا حبيبى .. تعالى .. بالعجل » ويضحك النساء ويلعب الفأر فى عب صفية زغلول .

وبعد أن تنتهى الزيارة تذهب لزوجها بكوب حلبة باللبن . وتسأله من هذه المطربة ويجيب سعد زغلول : منيرة المهدية « سلطانة الطرب » .. وكانت هذه

شهرتها . وتسأله صفية بتعجب وقد حدث لها تداعى من أقوال صديقاتها : لكنك لا تسمع إلا الشيخ رفعت أو عبده الحامولى أو سلامة حجازى .

ويجيب سعد : إن سلامة حجازى قد أعطى جوقته لمنيرة المهدية . وفجأة فجرت صفية قنبلة : طلقنى يا سعد . أو طلق السهر والقمار ، فأنت وعدتنى أكثر من مرة بأنك لن تبقى خارج المنزل بعد الساعة الثامنة . ولكنك لا تحضر قبل الساعة الثانية عشر .

وانفجر سعد زغلول : ما علاقة القمار بمنيرة المهدية بالسهر .

وقالت صفية : كلها سكة واحدة منفده على بعض !!

ولم يكن سعد زغلول يعلم حتى هذه اللحظة أن زوج (منيرة المهدية) له بارتيته قمار خاصة يلعب معها !! وان لمنيرة المهدية عوامة .. تغنى فيها ويلعب فيها زوجها القمار . ويبدو أن سعد زغلول بالفعل حنث فى يمينه مع زوجته ففى مذكراته .

بتاريخ ٥ يناير ١٩١٧ يقول « سعد زغلول » :

قمت أمس باكرًا ، وأصبحت اليوم نشاطًا منتعشًا ، ولقد تعهدت تعهدًا وثيقًا بأن لا أبقى خارج المنزل إلا إلى الساعة ٨ ، وأنى آخذ نفسى بهذا التعهد ، وملزمها الوفاء به لأن فيه راحتى ، وراحة زوجتى التى تتألم كثيرًا من سهرى !! وتكاد تموت إذا غبت عن العشاء ولذلك حُرم على أن أعمل على أذاها ، وأن أتلذذ بعذابها ، على أنه لا لذة فى البقاء زمنًا طويلاً خارج البيت خصوصًا لمن كان فى سنى وصحتى .

فاللهم أعنى على العمل بما يضمن راحتى وأهلى ، إنك سميع الدعاء .

وقبل حوالى أسبوع بالضبط من تسجيل هذه الخواطر ، كان « سعد زغلول » قد عاد من مسجد وصيف عند الفجر فيقول :

« ورأيت حرمى بعد عودتى فى الساعة ٢ تنتظرنى ، فقالت : خضيتنى وغضبت ، وغضب ثم اصطلح الحال .. » .

لقد كان حب « صفية زغلول » لزوجها سعد حبًا لا حدود له ، ولم تتزعزع مكانه هذا الحب أبدًا ، وعاشت « صفية » تتمنى من كل قلبها أن يكف « سعد » عن لعب القمار !!

ومن أطرف ما جرى فى أواخر يوليو ١٩١٨ عندما نشرت جريدة المقطم خبرًا يقول إن حكمدار بوليس القاهرة أرسل منشورًا لرؤساء جميع النوادى يحرم عليها لعب الورق بجميع أنواعه .

كان هذا القرار مصدر فرح وسعادة لـ صفية زغلول ، كما كان مصدر حزن وغضب لـ سعد زغلول ، وحرص « سعد » على تسجيل ذلك فى مذكراته (٢٩ يوليو) فيقول : « ارتاحت حرمى لهذا المنع غاية الارتياح ، ولكنى قرأت اليوم أن هذا المنع خاص بالنوادى التى تأسست على اللعب وللعب ، لا التى تأسست لأغراض أخرى فارتحت ولكن لم يسر ذلك حرمى » .

وهكذا لم تدم فرحة صفية زغلول !!

وفى أواخر ١٩١٨ أقلع سعد زغلول تمامًا عن القمار وقرر أن يعيد ترتيب مكتبته واهتم بالجغرافيا واللغات والتاريخ القديم وأعطى أسطوانة (منيرة المهدية) لأخيه (سعيد زغلول) الذى كان يعتبر ابنه بالتبنى وكتب فى مذكراته يقول : أرى (حرمى) مسرورة من حالى وقد زادت ساعات المؤانسة والمجالسة فيما بيننا . لأنها إن كانت وحدها كانت مؤانستها ضرورية لازمة لإزالة الوحشة من نفسها ، وإن كان معها غيرها كان ذلك على الأقل دفاعًا لما يتوهمه الأجنبى من وجود شىء من الجفاء بيننا .

إذا كنت أظلم نفسى باللعب وأظلم من يحبنى بالإعراض عنه ، فمن لا أظلم ؟ ومن أخدم ؟!

اتق الله فى نفسك وأهلك ، وقسم وقتك بين الأنس والعمل .

فى أثناء ثورة ١٩١٩ أصدر القائد العام البريطانى أمرًا عسكريًا بسجن كل من يذكر اسم زعيم الثورة سعد زغلول ستة أشهر مع الشغل وجلده عشرين جلدة .. وهنا غنت منيرة المهدية أغنيتها المشهورة « يا بلح زغلول يا حليوة يا بلح ، عليك بنادى فى كل نادى ، يا بلح يا حليوة يا بلح » . وانتشرت الأغنية ، وأصبحت على لسان النساء والرجال والباشوات والفلاحين حتى تحولت إلى ما يشبه النشيد الوطنى تحديًا لأمر قائد جيوش الاحتلال !

والمعنى أن المهم الرمز ، وزغلول موجود .. سعد موجود .

وكتب مستر ريجنالد ديلينى مراسل رويتر : « إن الذى يمشى فى شوارع مدن مصر وقراها يخيل إليه أن جميع أهلها من رجال ونساء وأطفال تحولوا إلى باعة متجولين . يبيعون بلحًا اسمه بلح زغلول » !

ثم أن منيرة المهدية لها أغان مشهورة (أسمر ملك روحى) و (عصفورى يامة عصفورى) وهى قادرة على أغانى صعبة لسيد درويش وداود حسنى وهى أول من صرف على المسرح وألفت فرقة مسرحية مثلت على مسرح « بريتانيا » روايات : « كلها يومين » لحنها سيد درويش و « كليوباترا » ولحنها سيد درويش وأكملها محمد عبد الوهاب !! وكان أول ظهورها مع (شفيقة القبطية) ..

ثم أصبحت المطربة الأولى فى مصر بلا منازع .

وفى مذكرات ثروت باشا بضع سطور عنها :كانت منيرة المهدية صوتًا يطرب . ولم تكن شخصيتها على مستوى صوتها ، فهى مسيطرة ، لحوحة فى طلباتها ، لا تترك فرصة إلا وعاجلتها بالاقتناص .. وفى كل مرة أروح فيها بسماعها كانت تتحايل لألتقاط الصور معها لى ولمن معى . وكان زوجها مثلها إلا أنه أكثر الحاحًا وفظاظة ..

ويفجر مفاجأة حين يذكر : توفى سيد درويش قبل عودة الزعيم سعد زغلول بخمسة عشر يومًا من منفاه وذهبت على رأس وفد من حزب الوفد للعزاء . بعد ما علمنا من أنه يعد احتفالاً قضى فيه وقتًا طويلاً لهذا اليوم . وبالفعل وجدت

هناك بالإسكندرية المنشدين والمزفين وقد استعدوا لحفل استقبال الزعيم ، واقترح الشيخ ماضى الفقى أن يتحول المنشدين والجقه لأداء جماعى وغير فى بعض كلام النشيد فحول « كلنا جميعًا للوطن ضحية » إلى « كلنا فى حب الوطن ضحية » وحاولت أن أعارضه فى ذلك لاختلاف المعنى ، ولكنه أوضح صعوبة ذلك في الأداء الجماعى ، وإذا بى أجد زوج (منيرة المهدية) الفظ اللحوح ، يخبرنى أنه ومنيرة قد حضرا لواجب العزاء وان منيرة المهدية تريد أن تحل محل سيد درويش فى استقبال الزعيم . ووجدت أن ذلك يجعل المنشدين والعازفين يعودون للسياق الذى وضعه سيد درويش ، فوافقت مبدئيًا إلا أن « عبد الرحمن فهمى » حضر للإسكندرية قبل موعد الزعيم بأسبوع . ولما علم الخبر ثار ثورة عارمة ورفض رفضًا باتًا . وقال فى ثورته : ما تجيبوا عوالم ورقصين !

ورفعت يدى عن الأمر . ووصل الأمر لحد رفض الاحتفال كله .

ولكن الإسكندرية خرجت كلها فى يوم ٢٣ سبتمبر ١٩٢٣ عند عودة سعد وقد حفظ الناس لحن سيد درويش واستقبلوه به . واختلط المنشدين بالبشر والعازفين بالأطفال والغريبة أنهم جميعًا أدوا اللحن صحيحًا وكما وضعه الشيخ سيد درويش !

مصرنا طننا سعدها املنا

كلنا جميعاً للوطن ضحية

اجمعت قلوبنا هلالنا وصليبنا

ان تعيش مصر عيشة هنية

عزك حياتنا . زلك مماتنا

يا مصر بعدك مالناش سعادة

أما الكاتب الصحفى حنفى المحلاوى فيذكر بديعة مصابنى في كتابه « من قتل سيد درويش » فيقرر انه كان فى حياة سيد درويش نساء كثيرات وليست فقط «جليلة» فهناك فتاة من طنطا اسمها« فردوس » قال فيها :

يا ناس انا مت فى حبى	وجم ملايكه يحاسبونى
قالوالى روح جنة رضوان	اخترت انا جنة فردوس

وأحب الفنانة حياة صبرى ومن ضمن من يذكرهن منيرة المهدية !! ويذكر أن أوراق التحقيقات فى مقتل سيد درويش ورد فيها اسم منيرة المهدية ... قال الشيخ خاطر فى هذه الأقوال عن وفاة أو مقتل صديقه سيد درويش !؟ قال الشاهد المهم فى هذه الأقوال المسجلة : « كان الشيخ سيد درويش قد وضع لحنًا جديدًا فى القاهرة لمنيرة المهدية ، وفى خلال البروفات اختلف معها « عواد الفرقة » .. الذى سافر إلى الإسكندرية وأعطى لحن الشيخ سيد درويش لمطربة اسمها « وداد » .. وعندما رجع الشيخ سيد إلى مدينة الإسكندرية فى آخر رحلاته لها ، سمع المطربة تتغنى باللحن .. وبطريقة أيضًا خاطئة شوهت من اللحن ، فثار عليها وصعد إلى التخت وهجم على « العواد » .. ثم خطف منه العود وحطمه فوق رأسه .. كما شتم المطربة .. وكاد بلطجية المسرح أن يفتكوا بسيد درويش لولا أن أنقذته شلة من الأصدقاء كانوا معه .

ولكن المطربة تظاهرت بعد ذلك بأيام بالتودد من جديد للشيخ سيد وطلبت منه أن يعلمها أصول الغناء ، ولذلك دعته إلى منزلها ليقوم بتدريبها وبتحفيظها لحنًا جديدًا له .. وكانت قد عرفت أنه أكول جدًا ، ولا يستغنى عن الكوكايين ، فأعدت له كميات ضخمة منه .. وسهر الشيخ سيد بالفعل عند « وداد » حتى مطلع الفجر ، ثم عاد إلى منزله فى بيت شقيقته « فريدة » بمحرم بك .. وكان متعبًا وفى حالة إعياء شديد لدرجة أن شقيقته استدعتنى من منزلى بكوم الدكة لأجلس إلى جواره ولأعرف ماذا أصابه !؟

وفى الصباح كان الشيخ سيد درويش جثة هامدة . وعند عرضه على طبيب صحة محرم بك الدكتور محمد حسن ...

قال : إنه يشتبه فعلاً فى أن يكون الشيخ قد مات مسمومًا ! » ، ووضعنا جميعًا أمام هذا السؤال :

- هل تريدون أن أحيل الموضوع إلى النيابة ؟

وتسمرنا جميعًا ، وأطبق علينا الصمت ، لقد كنا نعرف أن معنى هذا البلاغ .. تشريح جثة سيد درويش .

أما أوراق الفنانة « حياة صبرى » فغريبة ترد فيها أنها كانت تعمل فى فرقة « منيرة المهدية » كمغنية وراها الشيخ سيد درويش فأعجب بها وزادت العلاقة بينهما ارتباطًا حينما علم أنها من الإسكندرية ومن عائلة « عبد العال » من محرم بك وأن اسمها الحقيقى « عائشة محمد إبراهيم عبد العال » وأنها هربت إلى القاهرة لتعمل كمطربة . ولاحظت (منيرة المهدية) العلاقة بينهما وأنه يقدمها فى الجوقة ويعطيها بعض الدخلات فى مسرحياتها فطردتها . فقد كانت منيرة المهدية تغير عليه . ولكنه لم يكن يبادلها ذلك إلا فى أوقات البروفات فإذا انتهت المسرحية فض يده عنها !!

وعندما طردتها الست منيرة . ماذا فعل معها الشيخ سيد درويش ؟! إنها تقول على لسانها :

« فأغرقنى فى الرفاهية واستأجر لى شقة مفروشة لنقيم بها .. وكان يتردد علىّ فى هذه الشقة مع بعض الأصدقاء حيث كان يشعر بأننى مهبط الوحى الفنى »

وتتوالى الحكايات عن منيرة المهدية المرأة التى اختصها سعد زغلول ببضع سطور ضمن مذكراته التى لم يكتب فيها إلا عن سبعة نساء : أمه ، وزوجته صفية ، وابنته بالتبنى (رتيبة) أم على ومصطفى أمين ، وحماته ، ومنيرة ثابت ، الملكة نازلى ، وسابعهم (منيرة المهدية) !!

مثلاً إنها رفضت بيع عوامتها الخاصة للملكة نازلى ، رغم أن الملكة زارتها بنفسها فيها وحينما قالت لها نازلى : يظهر أنك ناسية أنى ملكة مصر . ردت عليها منيرة : أنت اللى ناسية يا مولاتى أنى سلطانة الطرب ؟!

ومثل آخر ما سجله ووراءه علامات تعجب واستفهام سعد زغلول فى مذكرات فبراير ١٩١٤ من أن حسين رشدى باشا عقد جلسة مجلس الوزراء فى عوامة منيرة المهدية .

وعلل ذلك بأنه وجد كل الوزراء هناك فى ندوتها التى تضم كبار رجالات البلد !!

ولم تبع ولم تسكت منيرة فى عصر سعد زغلول .. ولكنها باعت عوامتها وأحتجبت عام ١٩٤٢ ولمدة عشرة سنوات عادت بعدها للطرب فى أكبر سقطة لها حيث لم يتحملها الجمهور ونادوا عليها : شدوا الستارة منيرة دى ولا غارة !! و .. والعوا النور منيرة بلعت وابور !؟

وقد انضمت « منيرة المهدية » لزميلتها فى الكار « فاطمة سرى » فى قضيتها مع (محمد شعراوى وهدى شعراوى) السابق الإشارة إليها - وأرسلت فكرى أباظة المحامى ليقف معها فى قضيتها فقد كانت لمنيرة قضية مشابهة ، فقد غرر بها ابن أحد البشوات ، وحملت منه ، وخطف أهله بنتها التى أنجبتها منه ، فهربت من أهلا ، وبدأت حياتها كمطربة متخفية فى ملابس الرجال حتى لا يعرف مكانها أهلها - ثم تزوجت من بطل المصارعة « حسن كمال » ليحميها وبدأت فى الظهور بجنسها الحقيقى !! .. ولذا شعرت أن قضية فاطمة سرى قضيتها .. قضية الفن ضد البشوات .

إلا أن أغرب حكايات « منيرة المهدية » كانت مع أم كلثوم حينما شعرت أن هذه الفتاة الصغيرة تهدد عرش سلطنته « سلطنة الطرب » وقد فعلت العجائب من أجل الحفاظ على اللقب للأبد ولكن كما يقولون « لو دامت لغيرك ما وصلت لك » !!

لقد شعرت بأهمية سلاح (الصحافة) فى قضية (فاطمة سرى) . فأرادت أن تستعمله ضد أم كلثوم !! لم يسعفها سلاحها المعروف البشوات وغنوتها المشهورة « ماتخفش علىَّ أنا واحدة سجوريا .. فى العشق يا أنتا واخدة البكلوريا » .

وأشار عليها البعض إلى أثنين : فكرى أباظة وعبد المجيد حلمى .. وسألت من أكثرهم أستقامة وقلة خبرة وقلة شهرة وحاجة وتعجب الجميع ولكنهم قالوا لها : عبد المجيد حلمى رئيس تحرير مجلة « المسرح » وقلمه عنيف وهو صعيدى وشاب لم يسبق له نزوات ولم يعرف عنه مغامرات في عالم العشق والهوى .

وقررت منيرة المهدية أن تقع فى غرام الصحفى الشاب ، ودعته إلى الغذاء فى عوامتها وبعد ساعة واحدة كان يجلس تحت قدميها يبادلها عبارات الشوق وهى تلقى البترول على قلبه المشتعل فتندلع النيران !

وخرج عبد المجيد الطيب من عند منيرة وهو مقتنع بأنه حبها الأول والأخير ، وأصبحت مجلة المسرح هى مجلة منيرة المهدية سلطانة الطرب فى مصر والشرق ! وبدأت مجلة المسرح تهاجم أم كلثوم وقالت فى ١٧ يناير سنة ١٩٢٧ ، أم كلثوم لها مئات العشاق ولا أدرى ماذا يحبون فيها ، فهى ليست على شئ من الجمال ولا خفة الروح ولا سلامة الطبع .

وفى ١٣ يناير سنة ١٩٢٧ كتبت مجلة المسرح تقول « إن أم كلثوم نجمها قد غرب » وفى ٣١ يناير أيضًا كتبت مجلة المسرح تقول « أم كلثوم قدمت وهى بنت صغيرة شكوى لمحكمة السنبلاوين بأن شابًا من القرية اغتصبها » ووعدت بنشر نص الحكم ولم تنشره أبدًا لأنه كان خبرًا مختلقًا ، ولكن هذا الخبر كاد ينجح فى إعادة أم كلثوم إلى قريتها فقد قرأه والدها الشيخ إبراهيم وأقسم ألا تبقى أم كلثوم بالقاهرة بعد أن بزغ نجمها ولكن الأب أصر لولا أن صديقًا للأسرة حضر فى تلك اللحظة واستطاع أن يقنع الشيخ إبراهيم بالبقاء فى القاهرة الملعونة .

ولكن هذه الحملة العنيفة القاسية على المعجبين والمتحمسين للمطربة الشابة أم كلثوم لم تصرف الناس وفجأة جاء أولاد الحلال وقالوا .. لنغير ونعدل .. سنضرب أم كلثوم من المسرح وبسرعة اقنعت الست منيرة عبد الوهاب بأكمالة لحن سيد درويش (كليوباترا) . وكان الفضل لمسرح منيرة المهدية التى اكتشف محمد عبد الوهاب والذى يكتب فى مذكراته عن ذلك الحدث : بأن هذه المرحلة جعلته يلمع كملحن بعد أن لمع كمطرب ولكنه يذكر أيضًا ذلك المشهد الذى تلقى فيه (كليوباترا) بنفسها على صدره منتحرة بسم الثعبان - ويقول ولأن منيرة المهدية لا تقل عن ١٥٠ كيلو شحم فإنها فى كل ليلة كانت تخرج روحه حينما تموت على صدره متوهمة بأنها كليوباترا !! ونجحت الفكرة مرحليًا عندما نشر الأستاذ فكرى أباظة مقالاً فى الأهرام بعنوان « معجزة الموسم » .

قال فيه « منيرة وعبد الوهاب يفردان تغريد البلابل ، والجمهور يضج ضجيج الإعجاب العنيف بعد أن أخذت منه الدهشة كل مأخذ ، واستولى عليه ذهول الخاشع أمام السحر الحلال مجرم فى حق نفسه وحق الفن من لا يشهد رواية كليوباترا في الحال مجرم فى حق النبوغ والعبقرية من لا يبادر بإذاعة خبر هذا النصر الحاسم والنجاح البالغ عنان السماء ! » .

وأبدت منيرة إعجابها الشديد بفكرى أباظة وغار عبد المجيد من فكرى أباظة .

وفى ٧ مارس سنة ٢٧ ١٩ كتب عبد المجيد حلمي إلى حبيبته يقول « كان الشرط الا نتراسل ، مهما جد فى غرامنا ، ومهما وقع لنا ، ولكنى أحب أن أقص فى غيبتى مالا أستطيع ذكره أمامك » ، نذالة فى الرجل يا سيدتى أن يغدر ، ولكنها طهارة أيضًا الا يكون مخادعًا ولا غشاشًا ، وأنا اليوم أغدر بك ، ولكنى لا أغشك ولا أخدعك .. كنت أنت النار التى اشعلت ؛ جسمى ، ولا أقول قلبى - ولكن هذا القلب كان يدق حين يشعر بالالتهاب . فظننت أنى أحبك ، وظننت أننى لا أستطيع أن أعيش إلا لك أو من أجلك وفى سبيلك وفى ذلك النهار الممطر الذى قضيناه معًا فى منزلى ، فجأة دفعتك عنى كشئ قذر تمرغت فيه برهة ثم عافته نفى فتنصلت منه أصبحت « لا شىء » فى حين أنك منذ دقائق كنت « كل شىء » كنت أعتقد أننى أحبك وأننى لا أستطيع فراقك كنت أغار عليك حين تمدين يدك بالسلام لمخلوق ما وكنت أحترق حين أراك تبتسمين لشخص آخر كنت لا أطيق مجرد التصور أن رجلاً غيرى نظر إليك وابتسم لك .. أما الآن فلا أتمنى على الله إلا أن يبعدنى عنك إلى الأبد » .

وقالت منيرة المهدية .. هذا الحشرة .. يتركنى أنا .. يترك ست الستات . لست المراة التى يتركها رجل انا الذى اترك .. وجن جنون برج الحمل برج منيرة المهدية آه من برج الحمل .. وآن من امراة يبدأ اسمها بحرم ميم إذا قررت الانتقام والثورة .

وجاء اولاد الحلال .. وقالوا لها : بشبشى له .. اسحرى له .. وقالت آية الكلام الفارغ ده .. وقالوا لها وصفة معروفة بعض الآيات وبعض الطلاسم تكتب على ورق بالزعفران وتغسل بالماء ويشرب منها المحبوب !! أو شىء من اطره قطعة قماش منديل .

وفى يوم ١٨ إبريل سنة ١٩٢٧ كتب إليها عبد المجيد حلمى يقول « أصدقائى يصورنك لى بصورة بشعة ، وما يزيدنى ذلك إلا حبًا فيك ، وشغفًا بك وحنينًا إلى لقياك ، إن حديث السوء عنك يصيب جرحًا فى عاطفتى فيذيبها ، المرأة التى أحببتها يحتقرها الناس ؟! » ..

وفى يوم ٩ مايو سنة ١٩٢٧ كتب عبد المجيد لها يقول « أنت طاغية فى حبك الأبله ، طاغية فى تفكيرك الجنونى ، طاغية فى عبثك الأثيم ، طاغية فى استهتارك السخيف ، طاغية فى إحساسك وشعورك ، ومصرع كل طاغية رهيب .

فهل هذا بسبب الحب .. أم بسبب السحر أم بسببهما معًا ؟!

وسقط عبد المجيد حلمى صريع الحمى والحب ، وارتفعت درجة حرارته ، وأصبح يهذى ويذكر اسم منيرة .. منيرة وحدها ! وأفاق من غيبوبته ليكتب يوم ٦ يونيو ١٩٢٧ : « الآن وقد مضت علىّ الأيام الستة وأنا فريسة المرض ، بدأت الخيالات تمر أمامى تباعًا ، أعيد على ذكرياتى الماضى بعيدة وقريبة ، فيشتد الألم وتزداد قواى انحلالاً ، تألفت على عناصر الطبيعة تريد أن تصرعنى وتألبت لتغلبنى ووقفت لها احتمل ولا أدفع ، وأصبر فلا أجزع ، حتى ثقل الحمل ودنا المصرع ! » .

وهب العواصف من كل مكان تقتلع منيرة المهدية من عرشها ، البعض لعنها ، والبعض هاجمها والصحفيون أهملوا أخبارها ، والجمهور قاطعها ومضت منيرة تقاو الصحف كلها والمجلات كلها والنقاد كلهم ، كل أصدقائها تخلوا عنها حكموا عليها بغير محاكمة رفضوا أن يسمعوا شهودها أبوا أن يكون لها حق الدفاع عن نفسها ! كان عبد المجيد معبودًا بين الشباب فقاطعوا مسرحها ، وأطلقوا عليها اسم القاتلة ، وذهب بعض الناس إلى الشوارع ينتزع إعلاناتها الملونة أو يعمى عينيها الجميلتين المطلتين من إعلانات الحائط .

ولكن منيرة المهدية بقيت تذكر شيئين : إنها وفدية سعدية ، وفدية نحاسية ، وفدية ولو على رأس الوفد غراب !!

أما الشىء الثانى تلك الصورة التى التقطت لحسين رشدى باشا رئيس مجلس الشيوخ !! ونشرتها الصحف وروز اليوسف . « أنها مدت يدها ليسلم عليها رئيس مجلس الشيوخ حسين رشدى باشا ووجد الرجل نفسه يقبل يدها ليحدث أزمة برلمانية يقف فيها بسذاجة يقول « ليس فى الدستور المصرى مادة تمنع رئيس مجلس الشيوخ من أن يقبل يد مطربة » ..

كانت منيرة المهدية تحب شيئًا واحدًا .. هو منيرة المهدية - أن أى واحد أحبها قال هذه العبارة « أنا وهى نحب شخصًا واحد - هى !! » .

وإذا احتاجت لشئ لم تفصل بين الحب وما تحتاجه .. وتفعل هذا قبل الحب تمسح وتتكس وتكوى وتهب كل شئ ولها صوت مؤثر وكلام مؤثر وخطاباتها قصيرة .

وعن ذلك يحكى « مصطفى أمين » :

وفجأت سألتها :

- وأية حكاية عبد المجيد ؟

قالت فى استغراب : عبد المجيد مين ؟

قلت : عبد المجيد حلمى مجلة المسرح .

قالت ك آه .. آه .. عبد المجيد دى حكاية بسيطة ، كان يحبنى حبًا جنونيًا وكنت أعطف عليه لطيبته وبراءته ولكنى لم أحبه لأن غيرته كانت كالإعصار تحطم كل شىء أمامها !

ومضت الأيام وانقطعت منيرة المهدية عن الغناء ، وذات مساء اتصلت بى أم كلثوم تليفونيًا وقالت لى : « إنى أدعوك معى فى حفل ساهر اشتريت بنوار فى صالة بديعة وستغنى منيرة المهدية ، وأنا أريد أن أشجعها وأصفق لها والحت إلحاحًا عجيبًا أن أصاحبها .

وذهبنا وغنت منيرة المهدية وياليتها ما غنت ، كان صوتها أشبه بالاسطوانة المشروخة ، فقد صوتها حلاوته وبحته ورخامته وجاذبيته ، و كانت أقرب إلى ملكة

محنطة فى تابوت ترى فيها الماضى الخالد ولا تجد من أثر الحاضر سوى التراب ، وكانت أم كلثوم تلهب يديها بالتصفيق وتزغدنى فى كتفي لأشاركها فى التصفيق ، وخيل إلى أننا وحدنا الذين كنا نصفق وأن الجالسين فى الصالة انهمكا فى الحديث عن ذكريات سلطانة الطرب وبريقها الفتان .

ولم تكن التى أمامنا : منيرة المهدية - بل شبح منيرة المهدية وشعرت أم كلثوم أن القصاص قد جاء وإن كان تأخير ٤٠ سنة منذ أول مقالة كتبها الصحفى المتيم المسحور عبد المجيد حلمى - ضدها !!

* * *

الفصل السادس

سفر المودة

لست ملكًا حتى يؤرقني أمر الإنجاب !!

صفية زغلول

١٨٧٨ - ١٩٤٦

روت صفية زغلول أنها فى يوم زفافها عام ١٨٩٦ استدعتها أمها أصانيش هانم وقالت لها بعد الفرح :

سيأخذك زوجك من بيت أبيك فى باب اللوق إلى بيت زوجك فى غمرة فى عربة حانطور ، اجلسى صامتة طوال الطريق ، عندما تصل العربة أمام بيت العريس سينزل سعد ويقول لك : تفضلى ! إجلسى فى مكانك ولا تتحركى ! سيقول لك المرة الثانية : تفضلى ! إجلسى فى مكانك ولا تتحركى ! سيقول لك فى المرة الثالثة : تفضلى ! عندئذ تنزلين من العربة وتدخلين معه إلى البيت حتى يعرف من أنت !؟

وقالت صفية أنها اتبعت تعليمات أمها فلما وقفت العربة نزل منها سعد وقال لها : تفضلى ، فلم تنزل ، وعندئذ فوجئت صفية زغلول بسعد زغلول يتركها ويدير ظهره ويمشى نحو باب البيت .. وعندئذ وجدت نفسى أقفز من العربة وأجرى خلفه ومازلت منذ ذلك اليوم أجرى خلفه إلى الآن !

وهكذا لم تشعر هذه العروس الصغيرة إلا أن هذا الرجل سيدها وإلهها الصغير . ولا تتحرك إلا بإذنه . ولا تتكلم إلا همساً . نسيت منذ تلك اللحظة أنها ابنة رئيس وزراء مصر الذى تولى حكم مصر ١٤ سنة بغير انقطاع . ونسيت أنها ولدت وأبوها وزير ، وأنها كانت طفلة أبيها المدللة . وأنها عاشت طفولتها فى قصر أبيها الحاكم بين الجوارى والأغوات . وقد كان لديها فى قصر أبيها أغا اسمه فيروز ، حملها وهى طفلة فلما تزوجت أهدتها أمها هذا الأغا وإذا بعريسها يرفض هذه الهدية ويقول أنه يرفض أن يعيش فى بيته أغا لأن خصى الرجل وحرمانه من رجولته وبيعه كالرقيق عمل غير إنسانى . وهو لا يقبل أن تعيش فى بيته جريمة تمشى على قدمين ! وهكذا كان سعد فى بيته يرتدى الجاكته والبنطلون فوق جلابية الفلاح الزرقاء !!

وروى « مصطفى أمين » فى مذكراته تلك الحكاية فكتب يقول :

« استدعى الزعيم الولدين الصغيرين (على ومصطفى) وقال لهما إننى سأكلفكما بمهمة سرية خطيرة لا أريد أن تعلم بها أمكما ولا ستكما !!

وفرح الولدان وتصوروا أن جدهما سيكلفهما بمهمة سرية ثورية ، وأحسا أن هذا شرف عظيم وقال لهما : تذهبان إلى محل شيكوريل وتشتريان قفازًا كهذا القفاز على ألا يزيد ثمنه على عشرة جنيهات .. غدًا عيد ميلاد « ستكم صفية » وأريد أن أفاجئها وأقدم لها هدية بمناسبة هذا اليوم السعيد !! ثم أعطاهما عشرة جنيها وخمسة قروش مصاريف ركوبهما الترام وقفازًا قديمًا من قفازات صفية زغلول حتى يحصلا على قفاز من نفس النوع .

وقام الولدان بالمهمة السرية فى كتمان شديد ، واشتريا هذا القفاز وأخفياه ثم عادا إلى بيت الأمة وقابلا « سعد » فى مكتبه بالسلاملك وقدما له القفاز ، وفرحا عندما أثنى على ذوقهما فى اختيار القفاز وكان أسود اللون .

وخرج الولدان فى سعادة غامرة وهما يشعران أنهما أصبحا موضع ثقة زعيم الأمة ولهذا كلفهما بهذه المهمة السرية على الرغم من أن عمرهما كان يومئذ ١١ سنة ، وكانت هذه أول مرة يحتفل بها سعد بعيد ميلاد زوجته ، ولم يقم لها مأدبة أو حفلة عيد ميلاد ولم يأمر بعمل « تورته » يضع فيها شموعًا بعدد سنوات حياتها !

وكانت « صفية » سعيدة بهذه الهدية البسيطة التى يبلغ ثمنها عشرة جنيهات وكانت أكثر اهتمامًا بكيف اشترى سعد هذا القفاز !؟ فكان - سعد - يضحك ويرفض أن يخبرها بسر الولدين الصغيرين - وكان يقول إن الجهاز السرى للثورة هو الذى اشترى القفاز !!

وفى مذكرات « سعد زغلول » كتب فيقول :

إن هذا اليوم ١٦ يونيو - ولادة قرينتى - وقد أهديتها قفازًا قيمته عشرة جنيهات » .

وفى بداية الزواج كانت صفية زغلول تذهب بكثرة لمنزل والدها وكان هذا الأمر لا يعجبه ، وكان يعتقد أنه لا يعجب حماه أيضًا مصطفى فهمى باشا واعتقد أن

الأمر يرجع لحماته « أصانيش هانم » وكان يبدى ضيقه بروح من السخرية المهذبة فيقول لصفية : كيف أحوال الباشا وقصاقيص هانم . بدلاً من أصانيش وتعرف صفية أنها تأخرت أو غالت فى الزيارات !!

ولم يفقد « سعد زغلول » أبدًا روحه الساخرة وقفشاته اللاذعة ، وهى حسب ما يقول العقاد : « حاضرة على البديهة يستعين بها على لطف مؤاخذة أو رد مكيدة أو إلزام حجة أو صرف حادثة مؤلمة بكلمة مضحكة ، فهى تارة بلسم جراح وتارة عدة كفاح ، وهى مؤنة تصلح حينًا لمساجلة الأصدقاء كما تصلح حينًا لمناجزة الأعداء ..

وقد حدث مرة فى الثالث عشر من نوفمبر سنة ١٩٢١ - أن أطباءه رأوا من حالة الصدر وضغط الدم خطرًا على حياته إن هو أجهد نفسه أو خطب فى ذلك اليوم ، ولكن اليوم يوم الذكرى الوطنية ، وهو عائد من رحلة الصعيد وعنده كلام كثير يقوله ولا يؤديه عنه غيره ! فليتكلم إذن وليبطل كلام الطب ونصيحة الزوج الرؤوم ورجاء الأصدقاء وقد تكلم كما شاء وحى الطبيعة واعتلى المنبر أكثر من ثلاث ساعات فإذا الخطبة من أجود ما قال وأفعل ما ارتجل . وماذا حدث ؟! هل تحقق الخطر ؟! هل تعب ! هل اقتصر الأمر على السلامة ؟! لا .. عولج مما كان يشكوه وعاد كأقوى ما كان » .

وحسب ما يقول « مصطفى أمين » كان سعد زغلول إذا شعر بالإجهاد قال بسخرية :

- ربنا يرزقنا بأزمة مع الإنجليز حتى نجدد شبابنا !!

.. وكانت أسوأ أيامه هى الأيام التى يأمره الأطباء فيها بعدم مغادرة غرفة نومه ، وكان يسمى هذا « أمرًا بالقبض عليه واعتقاله » وكان يناقش أمر الاعتقال ويعارضه ويحاول إقناع الأطباء بتخفيض مدة الحبس !!

.. ويتذكر سعد زغلول فى مذكراته مسألة نسائية بحته إنها يوم (التنفيض) .

وكان « سعد » يضيق بهذا اليوم ، فالمطلوب منه أن يترك غرفته مبكرًا حيث يبدأ التنظيف من الدور العلوى والبداية من غرفة نوم « سعد » ، وهو يعرف أنه لا بد وأن يتناول طعام الإفطار بسرعة ، ولا يستقبل أى زوار فى ذلك اليوم ، وعليه أن يتناول طعام غذائه فى نادى محمد على !!

فى يوم التنفيض كانت « صفية » تدخل غرفة « سعد » وتقف أمامه لا تتحرك ولا تتكلم ، ويفهم « سعد » من هذه الحركة - كما يقول « مصطفى أمين » - أنها تدعوه إلى الجلاء عن البيت بسرعة ، وكان « سعد » يسمى « صفية » فى ذلك اليوم « مقلقة الراحات وهادمة اللذات » !!

وكان « سعد زغلول » يقول إن « صفية » مريضة بمرض اسمه « النظافة » وكانت صفية تضع منفضة من الحديد فى أدنى درجات السلم الخارجى ومنفضة من سعف النخيل فى أعلى ، الأولى ليمسح فيها الزائر قدميه من الطين والثانية ليمسح فيها الزائر حزاءه من التراب . فإذا وجدت - صفية - آثار أقدام على الرخام الأبيض فى سلم السلاملك ، نادت « عبد الكريم » فراش السلاملك ليسارع إلى محو هذه الآثار حتى تبدو درجات السلم الرخامية ناصعة البياض تبرق وتلمع وتضئ ، فقد كانت ترى آثر الأحذية على الرخام كأنها وصمة عار فى جبين البيت الأبيض النظيف !!

كان أغلب الكبار والوزراء والأسماء اللامعة فى ذلك الوقت يلعبون القمار قتلاً للوقت والتسلية ودفعًا للملل . وكانت الزوجات هن أول من يدفع الثمن : غضبًا وقلقًا ومشاجرات وخسارة أيضًا !!

وعندما أصبح « أحمد فؤاد » سلطانًا على مصر كان أول قرار أصدره أن تتولى الدولة تسديد ديونه ، وكانت « ديون القمار » على رأس هذه الديون !!

وحاول « سعد زغلول » عشرات المرات أن يقلع عن عادة لعب القمار ، حتى لا يغضب «صفية» التى كانت تكره وتمقت القمار ، وحتى لا تتزايد خسائره وديونه !!

كانت « صفية » غاضبة بلا حدود ، وثائرة على تلك العادة التى تمكنت من « سعد زغلول » . ومن جانبه لم ينكر « سعد » أنه حاول مرات كثيرة الإقلاع عن اللعب لكنه كان يفشل .

وفى ٨ مايو ١٩١٧ يعترف فى مذكراته قائلاً :

« لأنى أتردد هذه الأيام على النادى فأنا لا أريد أن أفكر فى عدم استطاعتى ترك اللعب ، ولكن بما أنى ملتزم كان على أن أترك الرزيلة كيف أعرف كل عيوب

القمار وأتمسك به ؟! ، إن زوجتى تعانى كثيرًا من جراء ذلك حتى أنها لا تكاد تنام وهى دائمًا غاضبة » .

وكان مما يزيد الأمر على (صفية) أنها شعرت بأن سهره فى القمار له أبعاد أخر . فقد طاف بها من قبل على الأطباء فى مصر وأوروبا ، وعرضها على أكبر الأطباء . فأجمعا على أنها لا يمكن أن تلد !!

ولعب الفأر فى عب (صفية) !!

وكان سعد يطمئنها بأنه : ليس ملكًا ليهتم بأمر الإنجاب ، وأنه عندما تزوجها كان يريدها لذاتها لا بسبب الأولاد . وأنه رجل يرضى بما يقسم به الله وفيما بعد أقلع سعد عن القمار عندما ازداد شك زوجته وحول النساء لها الشك إلى نار لا تنطفئ !!

وكان « سعد زغلول » يعزى نفسه قائلاً :

- إن كثيرًا من العظماء لم يرزقهم الله أولادًا لحكمة يعلمها !!

وبتاريخ ٥ أغسطس سنة ١٩١٧ كتب « سعد زغلول » فى مذكراته يقول :

« أتمنى الآن لو يكون لى ولد ، وأن ابنى بواحدة (أى أتزوج واحدة) من الفلاحين أو غيرهم ، ويشغل هذا الفكر بالى ، ولكن تحقيق هذه الأمنية صعب ، لأنى أريد أن يكون ذلك سرًا .. وذلك من المستحيل تقريبًا .. فالأفضل ترك هذا الفكر من أصله » . لكن « سعد » انشغل بما هو أكثر خطورة من الزواج ثانية .

وانشغلت صفية بهذه المصيبة ؟!

وحاول سعد أن يشغلها بتبنى أولاد أخته سعيد ورتيبة ، وفعلاً عاشوا فى بيته ولكنهم كبار وهى تريد ولد على الزيرو !!

وإذا بالصدفة تحدث يوم ولادة رتيبة :

ووصل الدكتور ملتون . ودخل الحجرة فى الساعة الأولى بعد ظهر يوم السبت ٢١ فبراير سنة ١٩١٤ ، وبعد دقائق كان يحمل فى يده مولودًا أكبر من الحجم المعتاد

وراح يضرب ظهره بيده فينطلق صراخه .. وتنتلق صفية زغلول الطفل وتدور به فى الغرفة وهى تصحيح فى فرح وزهو . ولد ! ولد ! .

- ومضت مصفية تقول وهى تلف المولود باللفات والأربطة :

- معذورة رتيبة ! إن ضخامة جسم المولود هى السبب فى صراخها وعويلها ..

وإذا بالسيدة الحكيمة التى كانت تساعد الدكتود ملتون تصرخ فى فزع :

- الحقونى ! الحقونى !

واتجهت صفية فى رعب إلى الفراش الذى ترقد فيه رتيبة وتصورت أنها ماتت فى أثناء الوضع .

وقالت الحكيمة وهى لا تزال منحنية على جسم رتيبة :

- فيه واحد ثانى ..

وأخرجت الحكيمة مولودًا هزيلاً ضعيفًا ضئيلاً ، حجمه أقل من المعتاد ، ويدق قلبه كما تدق الساعات الرخيصة التى لا تنتظم خمس دقائق إلا لتتوقف خمس دقائق .

وراح الدكتور ملتون يضرب بيده ظهر الطفل الهزيل فلا ينطق ، واستمر يضربه حتى خرج من فمه صوت هزيل ضعيف أقرب إلى حشرجة عجائز يموتون . منه إلى صراخ أطفال يولدون !

وسلمت صفية المولود الأول إلى الحكيمة ، وحملت المولود الثانى وصاحت فى دهشة :

- ولد كمان !؟ .. ولد تان ؟؟

وما كادت رتيبة تعلم أنها رزقت بولدين توأمين حتى أغمى عليها من الفزع . وأسرع الطبيب يسعفها من أثر الصدمة الهائلة ! لم تكن ولادة التوأمين منتشرة فى مصر فى تلك الأيام كما هى منتشرة الآن . كانت رتيبة تحمل هم تربية مولود واحد . فإذا بها تفاجأ بأنها رزقت بولدين معًا فى وقت واحد . كيف تربيهما معًا ؟

كيف تحملهما معًا ؟ إن هذه أول مرة تلد فيها ، وهى لا تعرف كيف تعنى بطفل واحد ، لا بطفلين اثنين فى وقت واحد . وهى قد أعدت ملابس ولوازم طفل .. فماذا تفعل بالطفلين !

ومضت رتيبة تبكى وتندب سوء بختها . وقلة حظها ، لماذا هى وحدها دون نساء العالم ترزق بمولودين معًا !

وكانت رتيبة تشهق بالبكاء حزنًا وأسى بسبب المصيبة الفادحة التى حلت بها . وتندب حظها لأنها رزقت وحدها دون جميع أمهات الأسرة بولدين فى وقت واحد وتركتها صفية وخرجت إلى الغرفة المجاورة التى كان يجلس فيها سعد زغلول ثم عادت مرة أخرى . وجلست بجوار رتيبة فى فراشها تهدئ روعها وتقول لها :

- إن سعد قال لى الآن أنه أسعد رجل فى العالم لأنك رزقت بولدين . فقالت رتيبة ودموعها تنهمر من عينيها : ولكنى أتعس أم فى العالم !؟ كيف يمكن أن أربى ولدين فى وقت واحد ؟

قالت صفية :

- إن سعد حل هذه المشكلة . إنه يقول إن الله شاء بهذين الولدين أن يحل مشكلتنا . أنا وخالك نتمنى أن يكون لنا ولد .. هذه هى أمنيتنا الكبرى . وقد حقق الله أمنيتنا فرزقك بولدين ، لنأخذ نحن إحدهما وتأخذى أنت الثانى ..

قالت رتيبة فى سعادة :

- صحيح هل وافق خالى حقًا على أن يأخذ أحدهما . خذى من تريدين منهما ؟

قالت صفية : لقد اقترحت أن أسمى الأول على باسم عمى على زكى واسمى الثانى مصطفى باسم والدى وقد وافق سعد على ذلك . وقال أنه يترك لك على المولود القوى الصحيح ، وسيأخذ هو المولود الضعيف الهزيل مصطفى .. وسوف نتبناه .. وسوف يحمل اسم خالك سعد زغلول ، وسيكون اسمه فى شهادة الميلاد مقرونًا باسم والده سعد زغلول وأمه صفية زغلول .

وأجهشت رتيبة بالبكاء وقالت :

- إنك تسخرين منى ؟ إنك تكذبين على بهذا الاقتراح . لتخففى عنى المصيبة .

قالت صفية زغلول :

- أقسم لك برأس والدى أن سعد يريد أن يتبنى مصطفى ، وقد عرض على الفكرة ، فرحبت بها من كل قلبى . إنك تسعدين خالك إذا نزلت عن «مصطفى» له .

قالت رتيبة إننى مدينة لخالى بحياتى . إنه هو الذى ربانى وأنا طفلة يتيمة . كما تبنانى مع أخى سعيد ، ولو طلب حياتى لأعطيتها له . إننى لا أظن أن فى الدنيا أبا خيرًا من خالى سعد ولا يوجد فى الدنيا أم خير منك .

قالت صفية : وهل سيوافق زوجك على أن نأخذ مصطفى ؟

قالت رتيبة فى عتاب :

- يوافق ؟ إنه سيرقص من الفرح والفخر ..

وأبلغته رتيبة باقتراح سعد وصفية أن يسمى الولد الأول على والولد الثانى مصطفى فرحب بالاقتراح .

ولكن ما كادت رتيبة تخبر زوجها باقتراح سعد أن يتبنى مصطفى حتى غضب الأب وثار ورفض الاقتراح بعنف وقال :

- لا يمكن أن أبيع ابنى !

قالت رتيبة :

- إن المسألة ليست مسألة بيع وشراء ، إننا كنا نريد من الله ولدًا واحدًا وأعطانا ولدين ، وقد صدمت أنت كما صدمت أنا بالنبأ . جاء خالى وطلب أن يتبنى مصطفى لأنه محروم من نعمة الأولاد ، فلماذا لا نسعده بأن نعطيه الولد الضعيف الهزيل ؟!

قال الأب :

- أنا لا يمكن أن أعطى ابنى لأحد !

قالت رتيبة :

- إنه ليس « أحد » إنه خالى وأبى الذى تبنانى وربانى أنا وأخى وأنا يتيمة لأبوين فأقل ما أفعله أن أرد له جميله وأسعده فى شيخوخته ووحدته .

قال الأب :

يمكنك أن تعطيه ما تملكين ! ولكن ابنى لا يمكن أن أنزل عنه لأحد !

وتألم سعد كثيرًا لموقف الأب .

وعندما أرادت صفية أن تقنعه قال لها ما قاله لزوجته بعنف أقسى وغضبت صفية للطريقة القاسية التى أبدى بها رفضه .

وبكت رتيبة على رفض زوجها أن يتبنى خالها مولودها الضعيف .

ولم تمر هذه الأزمة ببساطة على بيت سعد زغلول . إنها جرحته . لقد عاش سعد بضع ساعات يتصور أنه أصبح أبًا . وأن ولدًا سيحمل اسمه . إنه سيحمله بين يديه . سيحبو فوق ركبتيه . سيسلى به شيخوخته . سيطربه صراخه . سيملأ صوته الصغير البيت الهادىء الساكن الوقور . وعندما تلقى سعد رفض أمين يوسف عبس وجهه وأكفهر . تحولت عيناه الضاحكتان إلى عينين جامدتين حزينتين . أحس كأنه طعن فى قلبه الذى نبض لأول مرة نبضة الأبوة بسكين زوج ابنته المتبنا . أو كما قال مرة : أحسست كأننى رزقت بولد وحيد ثم مات بعد بضع ساعات ! أيستكثر عليه أمين يوسف أن يعطيه المولود الذى لم يرده ولم يتوقعه ؟ ماذا سيفعل هذا الأب الشاب بمولودين اثنين ؟ إن أمامه سنوات كثيرة يرزق بعدد من الأولاد والبنات . ولكنه هو إنه لا أمل له فى أن يرزق بالولد .

وهكذا خرج للحياة التوأمين « مصطفى وعلى يوسف » ويقول رشاد كامل فى كتابه « الهانم والزعيم » :

وعاش « سعد زغلول » فى تلك الأيام لحظات قاسية من الحزن والهم والغم ، وحاولت « رتيبة » و « صفية » أن تخففا وتسريا عنه . وأن تزيلا كآبته ، وجاء الأب « أمين يوسف » يعرض اقتراحًا على سعد زغلول .. وهو أن يبقى الطفلان فى كنفه دائمًا وإن حملا اسم أبيهما !!

ورفض سعد زغلول هذا الاقتراح بشدة فى أول الأمر ، ثم عاد وقبله ووافق عليه ، وحاول جاهداً أن ينسى أو يتناسى اقتراحه السابق والمرفوض بشده ، ولكنه كان يعود بين وقت وآخر ويتذكره فيزداد حزنه .

وفى أيام أخرى كان سعد يجد متعة فى ملاعبة الطفلين الصغيرين ، يداعبهما ويحملهما ويدرس تصرفاتهما ويسأل عنهما إذا غابا ، ويبحث عنهما إذا اختفيا ، وفى أحيان أخرى تعود إليه رغبته فى أن يكون « أبًا » وضيقه بأنه حرم من أن يتبنى أحد الطفلين ، فيطلب إلى « صفية » أن تبعد الطفلين حتى لا يتذكر أنه فقد أحدهما ، ويفضل أن يعتكف وحيداً فى غرفته بمسجد وصيف « طوال الصيف » ويطلب إلى صفية أن تعطى رتيبة نفقات المصيف لتصحب الطفلين الصغيرين إلى اى مصيف ، بدلاً من أن يمضوا الصيف معه ، حتى لا يتذكر فى كل يوم أنه حرم من أن يكون أبًا لأحدهما ، وتنفذ « صفية » أمر زوجها !!

ولا تكاد « رتيبة » تحزم حقائبها لتصحب طفليها إلى مصيف بعيد حتى يعود « سعد » ويصدر أمره بإلغاء أمره الأول ، وبإحضار الطفلين وأمهما إلى مسجد وصيف من جديد !!

والذى لا يعرفه الكثيرون أن « سعد زغلول » وقع فى يده كتابات رفاعه رافع الطهطاوى واندهش به ووجد عنده السلوى - فرفاعة عاش فى عصر الجوارى والرقيق ، كان يمكن أن يتزوج أربع نساء ويعشق مائة جارية ولكنه لم يفعل ذلك ..

ليس فقط استقامة خلق ، ولكن استقامة فكر ، فالرجل لم يكن مثل غيره من ممتهنى الفكر فى مصر ، فهو يقول ويفعل ، ويؤمن فينفذ .

قد تزوج رفاعة الطهطاوى من ابنة خاله .

فماذا فعل معها ؟

وعلى طريقة رجال عصرنا ماذا فعل بها ؟

لنقرأ الآن - قبل أى شىء - رأيه فى «الحب» والحب الذى حلاوته « بالقنطار » لم يكن معروفًا فى زمن رجل عاش من (١٨٠١ إلى ١٨٧٣) بكل ما يفرضه ذلك من حمق وجبروت فى التعامل مع النساء .

قال رفاعة أيامها :

« معرفة إرضاء أحد الزوجين للآخر فن نفيس ، وإن كان صعبًا فى حد ذاته ، لأنه يستدعى كمال التربية والإنصاف بالعدل ، وقوة العقل ، وذكاء الفطنة ، واعتياد كل من الزوج والزوجة على تحسين أحوال المنزل المشترك بينهما ، وتنظيمه وترتيبة وتنظيفة بقدر ما يمكن ومعرفة الاعتناء بالوسائل التى تستدعيها « الصداقة » بين الزوجين لاشتراكهما فى المنفعة العمومية » .. فينبغى أن يكون « الحب » الموجود فى قلب المرأة والرجل بعضهما لبعض ، عبارة عن وداد خالص وصفاء فؤاد خلى من تجربة الغرام ، ومشوب بحرارة الشبوبية فى غالب الأحواد ، فمتى تمكن « الحب » فى قلب كل منهما فجميع وسائل اللذة توجد فيها ، « فالمحبة » هنا مشوبة « بالصداقة » الأكيدة .

وقد أعجبة ما قدمه رفاعة الطهطاوى لزوجته فى عقد زواجهما وكرر سعد زغلول : ليقرأ نساء هذه الأيام كيف يستطيع رجل حر أن يعطيهم ما يقاتلوا من أجله بلا قتال .. لقد رأى أن (الحب) هو الحزب النسائى الأول والأخير فى حياة النساء .. أما نص عقد رفاعة الذى تزوج ١٨٢٩ فنصه :

« التزم أنا كاتب هذه الأحرف رفاعة الطهطاوى لبنت خالى المصونة الحاجة كريمة بنت العلامة الشيخ محمد الفوغلى الأنصارى أنه يبقى معها وحدها على الزوجية دون غيرها من زوجة أخرى ، ولا جارية أيًا كانت ، وعلق عصمتها على أخذ غيرها من نساء أو تمتع بجارية أخرى ، فإن تزوج بزوجة أيًا كانت ، كانت بنت خاله بمجرد العقد طالقة بالثلاث ، وكذلك إذا تمتع بجارية ملك يمين ، ولكنه وعدها وعداً صحيحًا لا ينتقص ولا يخل إنها مادامت معه على المحبة المعهودة مقيمة على الأمانة والعهد لبيتها ولأولادها ولخدمها وجواريها ، ساكنة معه فى محل سكناه لا يتزوج بغيرها أصلاً ولا يتمتع بجوار أصلاً ولا يخرجها من عصمته حتى يقضى الله لأحدهما بقضاه » .

وفى مذكرات « سعد زغلول » بتاريخ ٢٠ سبتمبر ١٩١٦ كتب يقول :

لـ « رتيبة » بنت أختى ولدان توأمان ، أحدهما يدعى « مصطفى » والثانى «على» ولا يتجاوز عمرهما الان سنتين ونصفًا ، وهما يحبان بعضهما ، ويلعبان معًا ، وإذا غاب الواحد بحث الآخر عنه !

ومصطفى ضعيف البنية ، ولكنه رقيق المزاج ، وكل منهما سريع التأثر ولكن مصطفى أسرع ، وفيه حسن التفات ، ورقة قلب وحنان .

وقد ربتهما والدتهما على النظافة ، ولكن لشدة حبها الأموى عدتهما أن تطيع شهواتهما إذا بكيا ، فتجد الواحد منهما يطلب الشىء ، فإذا منع بكى بكاء مرًا ، وإذا نُهى عن أمر كان يميل إليه بكى أيضًا كذلك ، ولكن بكاء « مصطفى » يؤثر فيها أكثر لضعفه ، فتسارع إليه .

وربما أعود إلى الكلام عنهما بعد ذلك فى فرصة أخرى .

ويحرص « سعد زغلول » على تسجيل واقعة طريفة خاصة بالتوأمين ، فيكتب فى مذكراته بتاريخ ٣١ أغسطس ١٩١٨ :

« غدًا تأتى رتيبة مع أخيها ونجليها (على ومصطفى أمين) وأظهرت للست عدم رغبتى فى طهارة (ختان) نجليها عندنا ، ورأيت الأوفق أن يكون ذلك عندها ، وقلت إنى مستعد لأن أساعد الأقارب من بعد ، لا من قرب ، فقد جربت قربهم فوجدت فيه شقائى » .. ويعلق « مصطفى أمين » فيما بعد على هذه السطور من مذكرات « سعد زغلول » فيقول :

« ويظهر أنه وقعت أزمة بين « سعد » و « صفية » بسبب طهور الولدين ، فقد كان سعد لا يطيق أن يرى طفلاً متألمًا ، ولهذا كان يرى وجوب طهور الولدين بعيدًا عنه ، ومع ذلك انتصرت « صفية » بعد ذلك بثلاثة أعوام وتم طهور الولدين فى الطابق الأعلى ببيت الأمة ورفض سعد أن يدخل غرفتهما التى لازماها بضعة أيام بعد الطهور » ..

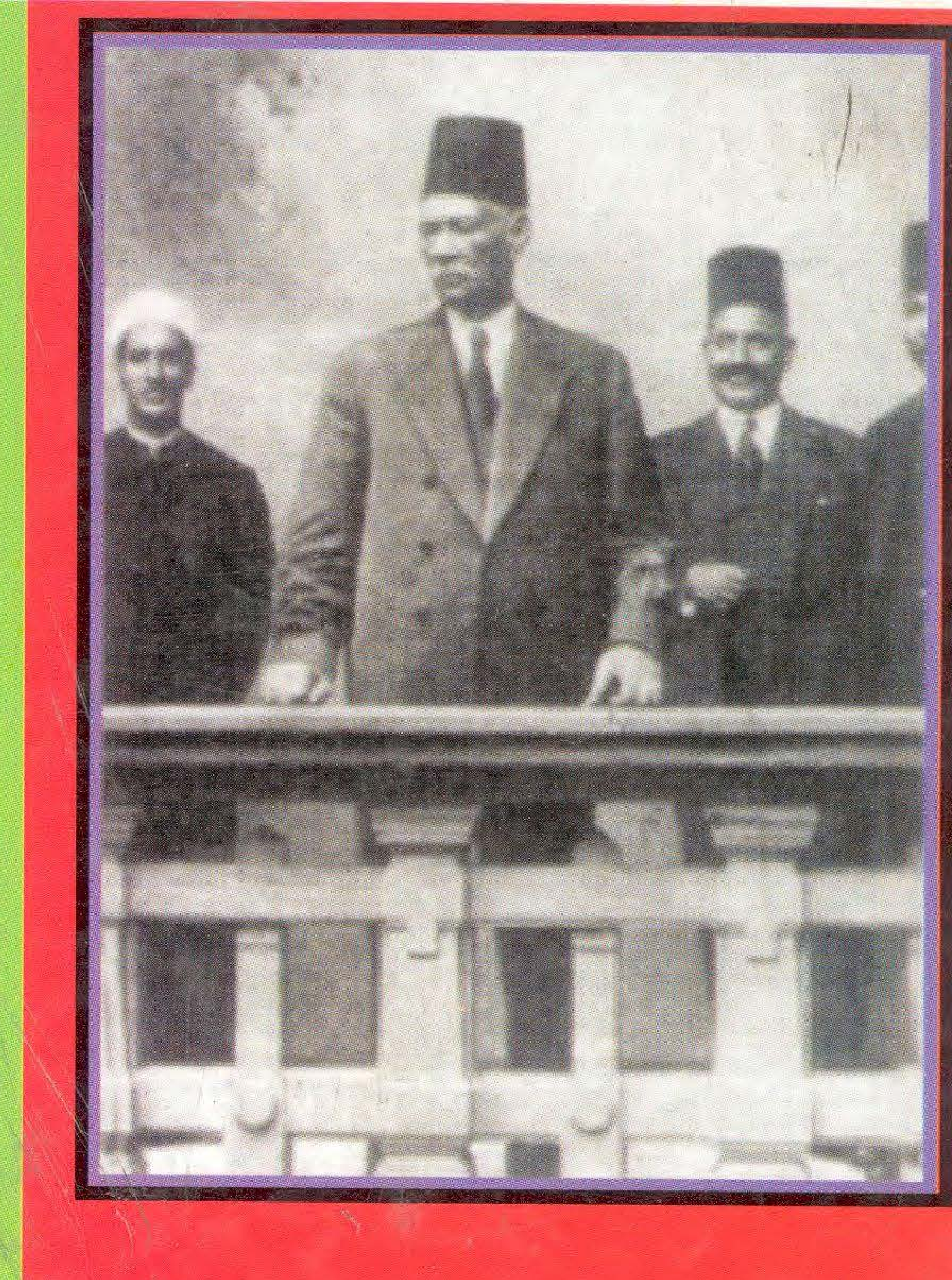
ويذكر رشاد كامل فى كتابه سابق الذكر أن طبيب عرض على سعد زغلول أن يتبنى ابنه المولود حديثًا ورفض سعد بشدة لقد أقتنع برأى أبو التوأمين « أمين يوسف » ..

ولم تصبح المشكلة كبيرة على « صفية زغلول » إن الصغار يتربيا فى كنفها ثم أنها أصبحت أم المصريين كلهم ويعلق على ذلك مصطفى أمين فى كتابه « من واحد

المحتويات

نساء الزعيم سعد زغلول

الثورة التى أيدها الحرملك



فى هذا الكتاب

قصة سعد زغلول مع النساء . ليست قصة غرامية مشتعلة ولا فضيحة صحفية .. ولكنها قضية حميمية كانت ولا تزال مثارة بين :
الوطنية والنسائية الثورة والحركة فالرجل كان مهموما بقضية وطنية يبحث عن وصفة سحرية لثورة شعبية تسرق الاستقلال من تحت عرش الخديوى ومن بين أنياب دبابات الإنجليز .. وبالطبع لم يغب عنه أهمية مشاركة المرأة فى هذه الوصفة السحرية .
وإذا كان الزعيم سمح للحريم بحرية عريضة إذا ما ارتبط الأمر بثورته الوطنية فإن خطواتة قد ترددت معهن حينما أردن أن يخوض حركة مرتبطة بذواتهن من تحت مظلة ثورته . وإن لم يمنع ذلك النساء من تلوين ثورة ١٩ ببعض ألوان الطيف البراقة .
فإذا كان رفاعة الطهطاوى تنبأ بفتح الباب للحريم والشيخ محمد عبده لم يجد غضاضة دينية فى ذلك فإن سعد زغلول هو الذى قرر الاقتحام وفتح الباب ولكنه أصر أن يكون المفتاح بيديه ..



الناشر

حمدى [signature]



مركز الراية للنشر والإعلام